صالح الحاجة

نهر الفقراء



كتاب المعارف يصدر عن دار المعارف

65
نهر الفقراء * صالح الحاجة * دار المعارف للطباعة والنشر

كتاب المعارف يصدر عن دار المعارف

صالح الحاجـة

نهر الفقراء

مجموعة قصص



منشورات دار المعارف للطباعة والنشر
سوسة/تونس

العدد المسند من طرف الناشر 91/409
تم ايداعه بالمكتبة الوطنية في شهر مارس 1991
* * *
ISBN _ 9973 _ 16 _ 130 _ 0 تدمك

الحنين إلى مضارب المياه والنخيل

بقلم الدكتور محمد صالح الجابري

قبل سنوات وأظن ان ذلك حصل في السبعينات من هذا القرن ، كنت طالعت قصة منشورة للأخ صالح الحاجة بمجلة (الفكر) ، فكتبت اليه خطابا أبدي له إعجابي بتلك القصة التي لا يحضرني عنوانها الآن ، ولكنني في نفس الوقت حذرته من مغبة الاستمرار في الكتابة في هذا المضمار كي لا يجني على مواهبه الصحفية ، ولئلا يشتت جهوده ، ويضايق بالتالي كتاب القصة الذين كانوا خرجوا انذاك بموضة (الطليعة الأدبية) وشددوا الخناق على كل من حاول الكتابة بأسلوب مفهوم ومقروء كذلك الذي كتب به الحاجة قصته التي أشرت اليها .

كنت نسيت تلك الدعابة ونسيت الحادثة والخطاب لولا ان أنبأني الأخ صالح هاتفيا ان مجموعة قصصية ستصدر له

خلال ايام .. فأثار الخبر ذكريات دفينة ، جعلتني اطلب منه قراءة المجموعة وان سمح بتقديمها .

لم يكن في تصوري ان اقدم الكاتب ، وهو ممن يصح ان اقدم نفسي من خلاله ، نظرا لشهرته الواسعة في مجال العمل الصحفي ، ولغزارة انتاجه وعطائه اليومي ، وصلته الدائبة بالقراء واهتمامه بمشاغلهم البسيطة وهمومهم المتجددة ، ولكن الذي خطر ببالي تقديمه من شخصية الكاتب هو ما قد لا يعرفه الكثير من الناس ، وما سيجد القارئ صداه واضحا في هذه المجموعة ، بينما يعسر التفطن الى اكثره بدون معاشرة الكاتب وصحبته والاطلاع على بعض خفايا حياته .

ان أكثر القراء على سبيل المثال لا يعرفون ان صالح الحاجة سليل بيئة أدبية ، تتوارث الأقلام والابداع كما تتوارث المتاع والشرف والفضائل ، وان « العرق الدساس » هو الذي فرض عليه ان يكون أمينا على تركة أهل الجريد ، فأخواله من قبيلة الشابية التي اعطت تونس والعروبة شاعرها الأكبر أبا القاسم الشابي ، وأعمامه من بناة حضـــارة الطوب ، ومن مفجري مياه الجريد وغارسي أولى طلائع النخل فيه .

كذا الوراثة وكذا الأصول ، حملت صالح واضرابه من أبناء الجريد رسالة الخالدين من اجدادهم ، وسرت في دمائهم فلم ينفع الترحال والإنتقال ، وتبديل المضارب في اجتثاثها أو النيل منها ، رغم اقامة طويلة بالعاصمة ، ورغم الشتات الاجباري . ولمن يريد التحقيق في الأمر عليه ان يقرأ ذلك في أكثر من قصة من قصص المجموعة ، وفي حوارات الوالد والولد ، وفي الاحساس يالضياع والانتقال ، والرغبة الملحة في البقاء والعودة الى المنابت .

كما عليه ان يقرأ ذلك في حالات تنازع الكاتب بين الصحافة والأدب ، بين الولاء للمهنة والولاء للقبيلة ولقانون الوراثة .

انها الصورة الأكثر بروزا في هذه المجموعة القصصية ، بل في كل ما كتب ويكتب صالح الحاجة من مقــالات وخواطر ، إنه صراع الكاتب الدفين بين النزوع الــــــــــى « تأديب » الصحافة ، وجعلها أكثر احتفاء بالفكرة وأكثر تعبيرا عن المشاعر والهموم بلغة لا تخلو من الشاعرية ، اعتبارا الى ان الأدب هو الوسيلة الأكثر تأثيرا ونفاذاً الى قلوب الناس ، وبين الاذعان لصحافة الخبر التي لا تعبأ بلغة التعبير ، ولا توليها الأهمية المطلوبة .

فلا غرو اذا ما طالع القارئ في هذه المجموعة قصصا تمازج فيها الأسلوب الصحفي بالأسلوب الأدبي ، دلالة من الكاتب وبرهانا منه ، وتجسيدا للفكرة التي يعمل على ترسيخها في الأذهان ، والقائلة بان الأدب والصحافة وجهان لعملة واحدة ، وأن الوجه الوضيء لهذه العملة هو الوجه الأدبي .

لقد جرت العادة ان يتدرج الكتاب من الأدب الـــى الصحافة ، من الباب الضيق الى أكثر الأبواب رحابــة وشمولا ، وبذلك فهم يتخلصون من الأسلوب الواحد وهو الأسلوب الأدبي الى الأساليب المتعددة التي يفرضها العمل الصحفي ، لأن الكتابة الصحفية في أعلى مراتبها من أصعب المرامي وأكثرها امتناعا عن أعظم كتاب الأدب . على ان حالة صالح الحاجة تبدو في هذا السياق وضعا لا يخلو من التفرد اذ نجده يعكس الصورة المتواردة ، بانتقاله من الصحافة الى الأدب ، من الباب الواسع الى الباب الأقل اتساعا ، مقيما بهذه التجربة جسرا من التواصل بين الأدب والصحافة ، مساهما بذلك في احياء المدرسة الصحفية التونسية التي كان الأدباء طليعتها ورموزها ، وقادتها وقد كان خاتمة هذه المدرسة الرائدة المرحوم الهادي العبيدي

الذي كان لنا شرف الجلوس اليه ، وكان لصالح الحاجة بالذات شرف الأخذ عنه ، وترسم معالم المدرسة التي ارسى دعائمها .

ان الذي يميز هذه المجموعة اضافة الى مضمونها الذي يعبر بجلاء وصدق عن بعض حياة وآراء كاتبها ـ اسلوبها المبسط المحبب الى النفس ، وطريقة صاحبها في التعبير التي تخالف الطرق المعتادة لكتاب الفن القصصي .

هنا في المجموعة شكلان تعبيريان ، أحدهما خطي والثاني صوتي ، فمع القراءة والمطالعة تشعر وكأن صوتا مبثوثا عبر الكلمات والجمل ينساب مع المقاطع والمعاني ، ويتشكل مع الأحداث يهمس في أذنيك ويمور في دمك ، ويندفع مع نبضات القلب ، يروي اليك ، ويصحبك في قراءتك ويساعدك على اقتحام هذا الواقع ، وذاك الخيال ، انه صوت الكاتب نفسه ، الذي يأبى بحكم اتقانه للعبة الكتابة اثقال الجمل بالصيغ البلاغية ، وشدها بحبال الوصل والفصل مستعيضا عن ذلك الاحتيال الأدبي باسلوب الصحافي المتمرس الذي يتوخى الخطاب المسموع ، والحضور في ذهن القارئ ، والعلاقة المباشرة به دونما حاجة الى واسطة أو بهرج لفظي .

ومع كل ذلك فما اظن ان الغرض من نشر هذه المجموعة هو تقديم الكاتب لأوراق اعتماده للتسجيل في قائمة القصاصين ، وأنا ممن يعرف الكاتب عن كثب ، ويعرف صرامته في معاملة انتاجه المكتوب وزهده في جمعه ونشره رغم الدعوات الموجهة اليه من الناشرين ، لكنها سواء قصد ام لم يقصد نزعته الى الاحتفاء بالجانب الأدبي من كتاباته ، والتأكيد على انتمائه الى حضارة الطوب التي قدمت لتونس كبار مبدعيها من أدباء الجريد أمثال الشابي ، وأسـرة خريف ، وأسرة صمادح ، وغيرهم من الكتاب الذين تعتز بهم تونس المعاصرة ومباهاته بهذه العترة [1] الطيبة من الأجداد ، والإسهام قدر الامكان في اثراء التراث الأدبي الابداعي استجابة لنداء الدم ... والعشيرة ... وتعبيرا عن نوازع الحنين الى مضارب المياه والنخيل ....

---

(1) عِتْرةٌ ح عِتَر ذريّة ، نَسلٌ ، « عِترةُ الرسول صلى الله عليه وسلّم »

النهر يؤسس مجراه

بقلم محمد أحمد القابسي

من الوهلة الأولى ، اعترف بأنني من أحباء صالح الحاجة ومن اصفيائه ... فعلى امتداد عشرين سنة خلت شد كلانا للآخر حب رحب عَرْش في حدائق الأعوام وانتشر في أيامها ولياليها ومن الوهلة الأولى كذلك اعترف بأنني لا أمارس صناعة النقد التي تحكمها قوانين ونظم ، ولكنني مثل صالح أحاول « انشاء شيء جديد انطلاقا من التعامل مع شيء أو أشياء قديمة وهو تعامل قد يكون اعادة تأسيس أو تركيب وقد يكون نفيا وتجاوزا على حد تعبير محمد عابد الجابري . فالابداع من هذا المنطلق هو « انتاج نوع جديد من الوجود بواسطة اعادة تركيب أصيلة للعناصر الموجودة .»

ونهر الفقراء الذي اسس مجراه جاء أصيلا فيما يطرح وفي طريقة القول عما يطرح انه النهر الذي يطفح بقراءة جديدة أصيلة لموضوعات قديمة ولكنها متجددة ... فالمرآة والحب والجنس والفقر ومعاناته ، والمدينة الفاجعة للقادم

اليها من الافاق العذراء ، والطفولة وألوانها الشفافة الطرية حينا والحزينة الغائمة احيانا .. تبقى من ثوابت الانسان منذ ان خطا خطواته الأولى الى عرش انسانيته وهي الثوابت التي تبقى كذلك برزخا للكتابة الكونية التي تخرج من تقريرية الخطاب الفج المؤدلج الى منزلة الانسان الممتدة والتي لا تحدها حدود ... ان كل مايحدث اليوم يؤكد من جديد بأن اشياء الانسان الصغيرة والكبيرة وتقطعاته مع منزلته ومع الدنيا ومع أخيه الانسان تبقى المادة الاساس لكل فعل ابداعي حقيقي وان توق الانسان الى الأرحب والأسمى وصراعه من اجل الانعتاق والحرية ومن اجل التحليق بعيدا عن كل السجون التي تكبله تحقيقا للذات ونحتا للكيان تظل هي الأخرى جسد الابداع وخلاياه وانفاسه لم لا !

وفي نهر الفقراء دفق من ذلك كله وسيول من التوق والمأساة والمكابدة والمعاناة من أجل الانعتاق والتوغل بعيدا في الحياة ... انه نهر الحياة بقساوتها التي هي من طبيعتها وبحلاوتها التي وان بدت كذلك فهي سراب مخادع ليس الا ..

نهر الفقراء هو كل ذلك ، معنى اما شكلا فهو يرفض ان يتقنن وينحسر ... انها كتابات كسرت هي الأخرى سجن الاجناس وتطاولت على طاحونة الشيء المعتاد في القول

والكتابة ... هي نصوص دفق بها النهر الواحا وتداعيات فيها نسغ القص وايماءة القصيدة وفيها تفاصيل الرواية وخصوصيات السيرة الذاتية ... انها دنيا من تداخل الكتابات تنسجم مع معانيها وتؤسس مجراها بعيدا عن سجن النمط وكلكل النوع ...

ذلك هو النهر ، أما صاحبه فهو من عباد الله المختلفين ، انه رجل ياكل الخبز ويمشي في الأسواق ولكنه يحمل هموما تعاشره وتعايشه وتتسلق كل خلاياه ، انه يحلم بانسان افضل في دنيا فاضلة أو تكاد !

يكتب كثيرا ولكنه يقرأ أكثر ، وفي كل مسيرته ظل مسكونا بثوابت لم تتحول ... ومن يقدر على ذلك في هذا الزمن السوريالي ؟

لقد واصل المسيرة منذ ربع قرن يسهم في فن دقيق من فنون الكتابة استطاع من خلاله ان يحقق معادلة صعبة طرفها الأول الشحنة الفنية للكلمة اما طرفها الثاني فهو الابلاغ الجماهيري فيما يخص قضايا الانسان والمجتمع ، طرحا اصيلا سهلا وممتنعا في الان نفسه . لقد استطاع صالح الحاجة ان يعرض على قرائه وبصورة دائمة ألوانا من

كتاباته المتميزة بأسلوبها وبرؤية انسانية شاملة ولا غرو بأن يصبح صالح اليوم من أكثر كتابنا المقروئين في تونس وفي الوطن العربي .

انه واحد من الذين استطاعوا في بلادنا ان يجعل القراءة اهتماما يوميا للقارئ في الصحافة اليومية ، توسيعا لمدى هذه الكتابة وتاكيدا لدورها في بناء الانسان والمجتمع . انه ذلك الكاتب العصامي الذي استطاع بموهبته وبمثابرته وطموحه وإلتزامه أن يكون مبدعا استثنائيا مؤمنا بالغد العربي المشرق الذي يتشكل من خلال المعاناة والنضال ، ولعمري فان نهره الذي نغرف الآن بعضا من مائه الزلال يعكس في صفائه بعضا من هذا ويعكس بعضا آخر قد تفيض به الروح في غير هذا المكان ... فطوبي لحبيب احب ، فتجلى وتألق

أيـــــها النهـــــــــــــــــــــــــــــر

حقق مجدك كامـــــــــــــــــــــــلا

وامض بعيدا بوجعـــــــــــــــــك

فالرحلة أمامك ممتـــــــــــــــدة

لكن الأرض مهما كانت أوجاعها مستبدة

سترتدي يوما ثوبها الناصـــــــــــع

وترمي الأرض طفله من فصـــــــــله

في حضن الشمـــــــــــــــــــــــــــس

ف . أ . م

محاكمة صلاح الدين الأيوبي

صدرت برقية تفتيش ضد صلاح الدين الايوبي فاصبح خائنا من كان بالامس بطلا ،،، ومن كان عزيزا انقلب الى ذليل .

بهت الناس ،،، وكادوا ان يشكوا في انفسهم ،، واحتاروا ،،، وتساءلوا ،، وعجزوا عن فهم ما يدور حولهم فقالوا « لا بد ان صلاح الدين الايوبي زيف التاريخ وخدعنا فاعتبرناه بطلا من ابطالنا الخالدين » ،،، ولكنهم لم يطمئنوا الى هذا الاستنتاج المتعجل فعادت اليهم حيرتهم .

وتم العثور بسرعة على صلاح الدين واقتادوه الى المحكمة ،،، ومن راوه وهو يدخل الى القاعة التي انتصب فيها قضاة غلاظ قالوا انه كان يبتسم ... البعض فسروا ابتسامته بانها علامة سخرية ،،، والبعض قالوا انها كانت علامة حزن وحرقة والم .

وقف صلاح الدين أمام القضاة ومنذ اللحظة الأولى طلب ان يتكلم ،،، فنهروه ،، ولكنه عاد ثانية يقول : سوف لا

أطيـــل ،، اريد ان اسالكم سؤالا واحدا فقط ،،، ما هي التهمة الموجهة الي ·

فقال له القاضي بلهجة لا تنم عن احترام · انت مجرم حرب ،، انت دمرت وخربت واشعلت نارا في بيوت المسلمين والمسيحيين واليهود في القدس ،، انت رجل فتنة وكنت تريد ان تجعل من نفسك بطلا فبددت اموال الامة واخذت من خزائنها بلا حساب بدعوى انك ستطرد الغزاة من سوريا وفلسطين ،، واعددت الجند من ابناء هذه الامة ثم رميت بهم في اتون الحرب .

قال صلاح الدين ولكن ياسيدي لم يكن امامي سوى الحرب ،، فبواسطتها اعدت للامة ارضها المسلوبة ،،، ومحوت عنها عارها ،، واعدت اليها شرفها ،

قال القاضي انت خطيب بارع تعرف كيف تزين سلوكك وتقنع من يستمع اليك بانك بطل تدافع عن كرامة الامة .

قال صلاح الدين انت مخطئ يا سيدي ،، لم اكن ابحث عن بطولة او زعامة ،، كنت احد عشاق هذه الامة فقمت بدوري حينما احسست ان وجودها اصبح مهددا ،،، واخالك

قرأت كتب التاريخ فلقد اجمعت ، بما فيها تلك التي كتبها الاعداء ، على اعتباري منقذا لهذه الامة في وقت مـا ،

قال القاضي · لا تذكر كتب التاريخ ، فهي مزيفة كتبها قوم كانوا ياتمرون بامرتك ،،، ويكتبون بوحي منك ·

قال صلاح الدين . هذا باطل ،،، ان الكتاب والمؤرخين في عهدي كانوا مثل بقية الناس ينعمون بحرية الرأي والتعبير والاختيار ·

قال القاضي . بحدة . هذا موضوع اخر ،،، وقد نحاكمك عليه في وقت قادم ،،، والان اصمت فماجئت هنا لتخطـب فينا .

قال صلاح الدين : كيف اصمت وانا متهم بتهمة شنيعة

قال القاضي . الصمت خير لك وابقى ·

قال صلاح الدين . اريد ان ادافع عن نفسي

قال القاضي : المحكمة ستتولى ذلك ،، فهي اعدل مما تتصور

ثم أخذ القاضي يعبث ببعض الاوراق كانت منثورة امامه واختار منها ورقة ، وتوجه ببصره الى صلاح الدين قائلا

الآن ،، وبعد ان مكناك من حق الدفاع عن نفسك اصدرت المحكمة الموقرة حكمها التالي

قضت محكمة اعادة كتابة التاريخ باعدام المسمى صلاح الدين الأيوبي ومحو اسمه من كل الكتب والشوارع والساحات بتهمة اشعال نار حرب واستبدالها بالتفاوض مع الاعداء والاتفاق والتعايش معهم والتسليم لهم باجزاء من الارض العربية مقابل ان تنعم الامة بالسلام .

واصاب الناس منذ ذلك اليوم حزن عظيم .

نهـــــر الفقـــــراء

القاعة فخمة جدا ... وواسعة جدا ... مفتوحة كالسماء ... لا شيء فيها الا مقعد كبير فخم يتوسطها .. لونه اسود ومنقط بماء الذهب وحوله تحوم ذبابة صغيرة تعبث بجلده الاملس النظيف ... واحيانا تقترب الذبابة وتجلس في وسطه فتبدو وكأنها أميرة خرجت لتوها من حمام ..

وفجـــــأة.

فتح باب القاعة الكبيرة ... وحدثت ضجة .. لقد وصل الرب الاصغر ليبدأ في عمله الكبير .. دخل الرب الاصغر الى فناء القاعة .. انه طويل نحيف .. وجهه في شكل سكين مشوهة بالدم .. وبأحد اصابعه خاتم كبير وبيده عصا غليظة مصنوعة من الأبنوس .. وعلى رأسه قبعة من قبعات رعاة البقر .. ويرتدي بدلة سوداء مخططة بخطوط بيضاء لا تكاد تظهر الا لمن يدقق فيها النظر ..

جلس الرب الاصغر .. فطارت الذبابة واتجهت صوب باب القاعة وهي تحس بأنها فقدت ذلك الغرور الذي يخامرها كلما

جلست على المقعد الفخم ...

ووقف على يمين الرب الاصغر ثلاثة رجال اقوياء ... وجوههم صلبة وعيونهم مملوءة بالدهاء والمكر والخبث .. وكل واحد منهم يمسك بعصا بيضاء غليظة مكتوب عليها بحروف حمراء بارزة « الحمد والشكر لك يا ربنا الاصغر »

ابتسم الرب الاصغر ... وجلس ... فتقدم منه أحد الرجال الثلاثة واخرج من جيبه سيقارا هافانيا وقدمه اليه ..

أخذه الرب الاصغر ... ثم أشعله .. وهو سعيد ..

-تصاعد الدخان ... فملأ القاعة ... وشعرت الذبابة بضيق شديد في التنفس .. واحست بأنها تنهار تماما ... فتخلت عن باب القاعة الذي تعلقت به وخرجت تبحث عن هواء نقي ..

اخرج الرب الاصغر من جيبه منديلا خفيفا ابيض ومرره على شفتيه ثم أعاده الي مكانه بكل لطف . . والتفت الى الرجال وابتسم ... فصفق احد الرجال ... وبمجرد ان توقف عن التصفيق دخلت امرأة عارية وكلب في حجم كبش خلفها ... وركعت المرأة العارية أمام الرب الاصغر ... وغمغمت بكلمات الحمد والشكر له ... ثم خرجت من الباب الذي دخلت

منه وتركت الكلب يجلس سعيدا على يسار الرب الاصغر .

ابتسم الرب الاصغر .. فصفق ثانية احد الرجال الثلاثة .. وبمجرد ان انتهى التصفيق دخل شيخ طاعن في السن يمشي بتأن ... وبخطوات متعثرة ملابسه رثة ... ووجهه قذر ... وعيناه تكاد دموع العذاب تسقط منهما ... وعلامات الحزن تملأ وجهه ... ومع ذلك هناك ابتسامة ما على شفتيه لايراها الا من يدقق النظر في وجهه الذي تكسوه براءة .. كبراءة السيد المسيح ..

تقدم الشيخ بخطواته نحو الرب الاصغر .. حتي اذا اقترب منه جلس على الارض وهو يحس بتعب شديد ..

قال له أحد الرجال: قم وقبل الارض بين يدى ربك الاصغر ..

ولم يتحرك الشيخ من مكانه ..

تقدم منه الرجل وبعنف ضربه بالعصا على مؤخرته فصاح الشيخ من شدة الالم .. وسقطت دمعة على خده لعلها كانت مختفية في احدى عينيه منذ ان ولدته امه ..

تدحرجت الدمعة ونزلت على الارض ..

ابتسم الرب الاصغر ثم تكلم موجها كلامه الى الشيخ

« امسح الدمعة بلسانك القذر .. هيا اسرع اسرع يا كافـر ... يا ملحد .. »

والقي الشيخ نظرة على دمعته .. كانت تلمع ككل دموع المظلومين والمطحونين في التاريخ ..

اقترب منها بعينه .. وظل ينظر اليها .. فخيل اليه انها تحولت الى نهر كبير .. نهر يعطى الشجاعة لمن يستحم فيـــه ... وخيل اليه انه يسبح في هذا النهر العظيم وانه تحول الى شجاع لا يعرف الهزيمة

ابتسم الرب الاصغر وقال .

« هيا اسرع ماذا تنتظر .. امسح هذه الدمعة .. ان منظرها يزعجني ويجعل مقعدي يهتزّ تحتي .. حرك لسانك واخرجه وامسح به الدمعة قبل ان يمسحك هذا الكلب .. »

ولم يتحرك الشيخ بل ظلّ ينظر بدهشة الي دمعته وهي تتحول الي نهر كبير يتزاحم على الاستحمام بميائه الفقراء ،

والمظلومون ، والمطحونون ، والمحرومون ، ليتحولوا الى اقوياء لا تهزمهم قوى الطغيان والشر في هذا العالم ..

وأحس الشيخ بأنه يعيش لحظة سعادة لم يحس بمثلها من قبل ... أحس بأن قلبه انقلب الى شمعة صغيرة تضئ داخله بضوء الامل والرجاء .. فغطت وجهه ابتسامة عريضة ظاهرة لم يبتسمها منذ ان أوقف وأذيق الوان العذاب ... لا لشيء الا لأنه رفض ان يصلي للرب الاصغر ... وانكر ربوبيته .. وقال للناس بصراحة ان ليس في هذا الكون الا رب واحد .. لم يلد ولم يولد ولا يراه الانسان بعينيه وانما يدركه بعقله ووجدانه ... وان هذا الرب الاصغر الذي يطلب من رعيته ان يسبحوا بحمده ويصلوا له في اليوم الواحد عشر مرات .. وان يقدموا له نساءهم وبناتهم ويذبحوا له القرابين رجل مثل كل الناس .. ان لم يكن اقل منهم .. ثم أنه حاكم ظالم .. عذب رعيته وقتل رجالها .. وسخر من نسائها واغتصب منها قوتها ليشترى بها القصور الفخمة والسيارات الفارهة والكلاب الكالبة ...

وفجأة قام الشيخ المتعب كأن نارا لسعته .. وتقدم نحو الرب الاصغر وهو يصرخ ..

« انت لست ربي الاصغر .. أو الاكبر .. انت رجل ككل الرجال ... انت قزم ... انت تأكل وتشرب وتدخن وتنام وقد تفكر ... ونحن ايضا نأكل ونشرب ونفكر .. فلماذا تطلب منا ان نصلي لك .. انزلت من السماء ام بعثت فينا نبيا جديـــدا ... لن نصلي لغير الله .. ولن نسبح إلا بحمد الله ... وافعل ما تستطيع ان تفعل فلن نؤمن بك واقطع رقابنا الواحد تلو الاخر فلن نصلي لك يا أكذب حاكم عرفته الانسانية ...

ولم يفقد الرب الاصغر اعصابه ... ولم يتحرك من مكانه .. وانما عبث بعصاه وابتسم .. فتقدم احد الرجال من الكلب واخذه بحنو الى الشيخ .. فهجم الكلب على الشيخ كأنه أسد هرب لتوه من قفص حديقة حيوانات ... وبجوع وحشي جرد الكلب الشيخ من ملابسه وطرحه على الارض ثم بدأ يأكل من لحمه .. والرجال ينظرون ولا يتكلمون .. والرب الاصغر يضحك بعنف .. والقاعة تستقبل الضحكات وترسل صداها في الفضاء ... والشيخ يبكي .. ويصرخ .. والرب الاصغر يضرب بعصاه على الارض ويضحك ضحكات مسترسلة بلا توقف

عملها ولد الكلب

في المطار اجتمعت العائلة حول الابن المدلل الذي سيركب الطائرة ويذهب الى المانيا حيث العمل في انتظاره .

هذه أول مرة يفارق فيها الابن المدلل عائلته .. وهذه أول مرة يحمل حقيبة ثقيلة في يديه .. وهذه أول مرة سيقول للناس : وداعا .

ولذلك كان الاب يبكي .. والام تولول .. والاخوة يصرخون .. والخطيبة تستغيث .. وأمّا هو فلقد كان يبكي بصمت ،، وبهدوء ..

كان المنظر في المطار .. ولكن كان يجب ان يكون في أي مقبرة .. إنه المكان الطبيعي لمثل هذا الصراخ والعويل .. ولولا اقتناع العائلة بكذبة ضخمة رددها بعض القوم فصدقوها من كثرة ترديديها لعادوا بابنهم من المطار ... ولعنوا المانيا .. والسفر ... والفراق ... ولكن مجرد تصورهم لابنهم وهو عائد بملايين الدوتش مارك جعلهم ينتظرون الطائرة .

قال الاب وهو يقاوم الدموع . ستتحول الى ثري يا ابني العزيز .. فلا تحزن على فراقنا .. من أجل الثراء كل شيء يهون .

وقالت الام وهي تمسح عينيها احرص على ان ترسل الينا حوالة شهرية .. لا تجعلنا ننتظر عودتك لنتحول نحن الى اثرياء

وقالت الحبيبة وهي تشهق · قائمة الملابس والاثاث موجودة بالحقيبة فلا تضيعها وأبدأ في الشراء بمجرد ان تقبض الراتب الأول ..

وذهب الابن المدلل الى المانيا ..

وعادت العائلة الى البيت ...

وفي المانيا اكتشف الابن المدلل الدنيا والعالم والنساء والحيلة .. اكتشف ان الناس يمشون على اثنين .. واكتشف في الدنيا كيف يمكن للانسان ان يبكي .. ويصرخ ويتعذب ..

****

وفي تونس ،،، الحبيبة تنتظر رسالة من خطيبها الذي

ذهب إلى المانيا ومعه قائمة الملابس والاثاث ووعاء العطور وأدوات التجميل ..

مرت ثلاثة شهور والرسالة لم تأت ..

***

في المانيا الابن المدلل وقع في حب امرأة المانية .. طلب يدها ... فرفضت واستغرب .. لأول مرة ترفض امرأة الزواج .. في البداية رفضت ... وعندما الح قبلت .. وتزوجـــا ..

***

في تونس طال الانتظار الحبيبة .. وملّت من الأحاديث الى صويحباتها عن عطور واحذية واقمشة المانيا .

***

في المانيا اكتشف الابن المدلل ان حكاية الثراء .. والمـــال .. والدوتش مارك .. حكاية فارغة ..

واقنعته زوجته االمانية بأن الثراء كذبة ضخمة لا يستطيع تحقيقها الا في الخيال .. أما الواقع فانه شيء

آخـــر ..

وقالت زوجته ان الحصول على الدوتش مارك ليس سهــــلا .. ولانه كذلك تزوجته ...

في تونس كان الاب يستمع الى برنامج (مع مواطنينا في الخــــارج ...)

فجأة قال المذيع .. ونلتقي الان .. مع .. احد عمالنا في المانيا ..

- ماذا تعمل ؟

- هل انت مرتاح لعملك هنا .. ؟

- وكيف تعلمت اللغة االالمانية ؟

- هل اعترضتك صعوبات ؟

- وتعودت على الحياة هنا

- هل تعجبك المانيا ؟

***

الاب يبكي ..

الام تكاد تدخل في جهاز الراديو ...

الحبيبة تعلن انه بخير .. ولكن لماذا لم يقدموه في التلفزة حتى نراه .. شيء غريب

***

كيف وجدت الاقامة في المانيا ؟

اذاعة تونس تتيح لك الفرصة لتطلب اغنية تهديها الى أهلك وذويك في تونس .

- اهدي اغنية ريحة البلاد لمحمد الجموسي واهديها الى أبي وامي واخوتي وأقول لهم انني بخير وانني تزوجت .

محمد الجموسي يغني ...

الام صاحت .. وسقطت على الأرض

الاب : عملها ولد الكلب

الحبيبة اختفت من الغرفة ولم يرها بعد ذلك أحد .

الهروب من « الجنّة »

كان يمكن أن أكون غير ما أنا عليه الآن ،، كان يمكن أن تكون عندي زوجة جميلة وثروة طائلة وقصور فخمة ... كان يمكن أن تكون حياتي يسيرة ... هادئة سعيدة ... فأعيش طويلا .. واكل هنيئا .. وأنام جيدا ... وأنهض في الصباح لأستقبل الحياة بقلب منشرح ... وبعينين مفتوحتين .. وبنفسية راضية ... وأخرج الى الشارع فيحييني الناس باحترام واجلال ويتهامسون فيقولون هذا بلقسام الغني الثري الذي يستطيع ان ينفق يوميا الملايين ومع ذلك يحتفظ بغنائـــه ... وأسافر الى مدن كثيرة ،، وأتفرج وأتنزه ... وأرى حسناوات العالم ... واستمتع بهن .. فليس أجمل ولا أمتع من أن تقضي ليلك مع غادة ... مع حسناء عودها طريّ ... وجسمها ممشوق ... وفمها فيه حلاوة ..

لقد حدثني عم الاخضر وهو الخبير بالنساء أنه كلما اجتمع بامرأة جميلة اجتماع عشق وغرام يشعر بأنه أصبح أصغر ... وأكثر شبابا ..

والحق أقول أن عم الاخضر استطاع ان يحتفظ بشبابه رغم أن شهادة ميلاده لا تقول ذلك فقد ولد كما يقول عام دخول فرنسا الى تونس ... وربما قبل ذلك التاريخ بوقت طويل ... فلا أحد يعرف تاريخ ميلاده بالضبط .. واسمه الاخضر وقلبه أخضر أيضا وهو رجل مفتون بالنساء ... ومنه تعلمت أشياء كثيرة ... فلقد حدثني ذات مرة أنه في وقت ما لا يكتفي في اللّيلة بامرأة واحدة ... ويظل ينتقل من حي الى حيٍّ .. ومن فراش الى فراش ... ومن حضن الى حضن ... الى أن يطلع الفجر وهو لم ينه دورته فمازالت في الجسم بعض قوة ... وفي القائمة أسماء ... وقد انتشرت شهرته بين النساء ... فهذه تحدث تلك والجارة تمتدح فحولته أمام جارتها ... حتي صرن يطلبنه من بعضهن ... ويتبادلنه ... ويضعن الخطط للاستحواذ عليه ... وأصبح من العادي ان تطلب منه حفصية ان يذهب الى مريم وتعطيه عنوانها وتلح عليه في أن يتصل بـــــها ...

ولعم الاخضر حيل وأساليب في منتهى المكر في الدخول الى البيوت ، فهو يتسلق خلسة الجدارن .. ويدخل من النوافـذ ... ويصعد الى السطوح ... وأحيانا يتمكن من التسلل حتي من الابواب فله مجموعة كبيرة من المفاتيح

يختار منها المفتاح المناسب ثم يدخل بحذر وببطء وله قدرة على الرؤية في الظلام ..

وكان يمكن ان لا ألتقي بعم الاخضر .. وأن لا أتعلم منه فن الاستحواذ على اعجاب النساء ... وكان يمكن ان تسير حياتي على غير ما سارت عليه ... وأن أكون صاحب غابة في توزر فلا أخرج منها ولا أجئ الى العاصمة .. وأعيش في توزر مثل كبارها .. كان يمكن ان يحدث ذلك ،، وغير ذلك .. وكان يمكن أن تحدث لي أشياء أخرى .. ولكنني لم اختر حياتي ... بل أنا لم أختر حتى المجئ الى العالم أصلا ... فلو سئلت قبل النزول من بطن أمي لرفضت أن أنزل ولبقيت في بطن أمي ... ففي هذا المكان كنت سعيدا .. ولم أشعر برغبة في مغادرة هذا المكان . ولكن لم يكن ذلك ممكنا .. فلقد أجبرت جبرا على النزول فنزلت وأنا أبكي .. وأنا حزيـــن .. وأنا رافض .. حتى محبتي لأمي لم تشفع لي ... ولم تمنع عني قرار الطرد من بطنها ومثلما كان الخـروج الأول .. كان الخروج الثاني .. فلقد خرجت من توزر وأنا كاره ... جئت الى المدينة وليست عندي رغبة حقيقية للمجيء فأنا أحب النخيل والغابات .. وأحب الحياة البسيطة التي لا تكلف فيها .

في توزر أمضيت السنوات الأولى من شبابي . . ذهبت الى الكتاب .. جلست الى شيوخ البلدة .. حفظت القرآن .. قرأت في بعض كتب السيرة والفقه .. تعلمت القراءة والكتابـــة ... وأخذت أقصى ما يمكن ان يأخذه الطالب المجد في توزر .. ثم انتهت الدراسة وجدت أن الفراغ أخذ يبتلعني شيئا فشيئا .. وتعبت من هذا الفراغ ـ في الصباح أذهب الى السوق .. وفي المساء أعود الى البيت لأجد أبي وقد استغرقته الصلاة .. فهو يسبح ويصلي كثيرا .. ويأكل قليـــلا .. وينام قليلا .. ولا حديث له الا عن يوم القيامة وما ينتظر كل مؤمن تقي صادق .. ولأجد أمي تتثاءب ولا تتحدث الا لماما .. فهي صامتة .. وحتى اذا تكلمت فباقتضاب .. فأذهب الى فراشي وأنا متبرم ... وكاره للبيـــت .. وللنوم .. ولكل هذه الحياة البائسة السقيمة الكئيبة .. فلا شيء فيها يجعلك تقبل عليها .. وقد بحثت عن عمل أرتزق منه ... فواجهتني كل المصاعب .. ولم أعثر على أردأ الاعمال .. كنت أتوقع أن أعمل بمخبزة أولاد الاعور .. فرفضوني بدعوى ان بنيتي ضعيفة لا تحتمل حرارة المخبـــزة . وكنت أتوقع أن أعوض أبي في البوسطة فرفضوا تشغيلي .. بحجة ان مكان أبي المتقاعد لم يبق شاغرا .

ونصحني بعض أهل البلد بأن أهاجر الى العاصمة وأجرب حظّي فيها لعلّ وعسى قالوا لي أن كل الذين سبقوني الى تونس أصبحوا في خير ووجدوا أعمالا مناسبة وأوصوني بان لا أنسى بلدتي ... وبأن أبعث لهم ببعض علب الدخان وبأن أبعث لأبي ببعض المال ليجدد بيته المتداعي للسقوط والذي أصبح كالخربة ..

وقد استغربت أكثر من مرة كيف أن هذا البيت مازال لم يسقط علينا .. وكيف ان جدرانه المتداعية مازالت صامدة رغم أن أجزاء كثيرة منها تداعت وما عادت ملتصقة بالسقف .

لقد ترك جدي هذا البيت لأبي وأبي ينوي أن يتركه لي ويقول لي دائما .. ليست العبرة ببيت الدنيا .. العبرة بقصور الجنة ... انه يحلم كثيرا بالآخرة وفي تصوره انه اشترى الجنة بدنياه والعبادة الدائمة هي التي ستوصله الى مبتغاه ويريد ان يراني الى جانبه في الجنة ولذلك يتحتم علي ان أبيع الدنيا وان اتفرغ للصلاة والعبادة وعليّ أن أشتري سجادة وسبحة وأبدأ في العمل الذ ي كان يصفه بأنه عظيم .

ومنذ ان عرفت أبي وهو يقرأ القرآن .. ويكثر من

الصـــلاة .. ويذهب الى الجامع ولا يتحدث الا في الدين وعن نور الله .

قال لي ذات مرة احرص على قراءة القرآن واقطع صلتك بالدنيا وبأصحاب السوء وتعلم كيف تجلس وحدك تسبح لله ، فهذه الدنيا دار فناء والعاقل من اتخذ منها معبرا لدار البقـــاء .

قال لي ذلك لما لاحظ أنني صليت فترة قصيرة ثم انقطعت وكنت أود أن أقول له أنني لا أريد ان أنقطع عن الدنيا ـ وأنني أريد أن أحيا حياتي فأتزوج وأنجب فلقد كانت قضية المرأة تشغلني .. بل حتى عندما كان أبي يحدثني عن الدين .. وعن الاخرة .. وعن عقاب جهنم .. وعن الثواب والجزاء ويصف لي أنهار الجنة كنت أتخيَّل نفسي وأنا أنام قرب امرأة في الغابة ،، وفي كل مرة أتخيَّلها بشكل .. مرة بيضاء .. ومرة شقراء . ومرة طويلة .. ومرة نحيلة .. وعندما أتخيَّلها نحيلة أطرد هذا الخيال بسرعة .. فأنا لا أحبَّ النحيلة .. وكنت أود أن أدخل معه في حوار ولكن لساني لا يطاوعني ... ربما لانني لا أريد أن أغضبه ... وربما لأنني أخشاه ... وربما لأنني أشعر بعدم الجدوى في أن أتحدث

اليه بما في نفسي .

لا أدري بالضبط مادا يمنعني عن الكلام . فأكتفي بالصمت وأشعره بأنني متفهم . وبأنني مطيع ثم أعده بأنني سأعود الى الصلاة فتنفرح أساريره وينهض وهو يقول اليوم تيقنت من أنني سوف لا أبقى وحدي في الجنة سيكون ابني معي ثم يصمت قليلا أما أمك فلن تكون معنا . . ولن تذهب الى الجحيم . فهي ستبقي بين بين لن تكون من أهل اليسار ولن تكون من أهل اليمين .

وكان يقول ذلك بلهجة الواثق مما يقول ان الرجل يعيش في عالم خاص بناه لنفسه . ويريد ان يدخلني الى عالمه هـذا وأنا أحاول ان أفلت .. أن أهرب . فما يشغلني الآن هو كيف أجد القلب الذي أسكب فيه بعض القطرات من حبّـي .. لقد تعلّمت من أمي كيف أصمت في المواقف الحرجة .. وليست لي مثل هذه المواقف الا مع أبي .. ان كلماته تنزل فوق رأسي .. فوق ظهري .. وفوق جسدي كالمطارق .. ولكنني لا أستطيع لها ردا .

أحيانا أتمنى أن أصرخ في وجهه .. أن أثور على هذا العالم الذي سجنت فيه نفسه .. فهو مقيد بمسبحة

وسجـــــاد ة ... ولكن شجاعتي تخونني ، فأنكمش .. وأخبئ وجهي بين رجلي الى أن تأتي أمي وتجلس حذوي كالقطة الخائفة .. لا تتكلم ... ولا تنطق .. انها كالجدار المتهدم الذي أستند اليه ... وتمضي ساعة وساعات ونحن صامتـــــان .. ثم ننهض لننام

بلوزتك وشاشيتك لا تفرط فيهما حين تستقر في العاصمـــة .. ذلك ما بقي في ذاكرتي من كلمات أبي وهو يودعني في محطة الحافلة.

لقد أصر على أن يذهب معي الى المحطة .. وكان طوال الطريق يحاول أن يثنيني عن السفر .. في رأيه ان هذا السفر سيشقيني .. وسيبعدني عن الآخرة ... وسيكون سدا منيعا بيني وبين الجنة .

كان يريد ان أبقى الى جانبه .. نذهب سويًا الى الجامـــع .. ونقرأ معا القرآن .. ونعيش بالقليل .. وحتي العمل لن أحتاج اليه .. فلم العمل .. وأنا سأكتفي بغمس الخبز في الماء .. ان الانسان الذي يأكل كثيرا يملأ بطنه بأحجار جهنـم .. هكذا قال لي ونحن نقترب من المحطة .. وكدت أن أنفجر في وجهه ... ولكنني عجزت فلذت بالصمت ..

وقف في المحطة وبيده مسبحته وأخذ يرسل دعواته بصوت عال وكان الناس يستمعون اليه فتحرجت ... وحاولت ان أحثه على العودة الى البيت ولكنه اصر على البقاء الى أن تنطلق الحافلة واستمر في ارسال دعواته وكان يرفع بصره الى السماء كأنه يبحث عن شيء هو وحده يعرف مكانه ... ويصمت قليلا .. ثم يعود الى أدعيته ... وأنا مكسور الخاطر . مشتت الذهن .. أقاوم نظرات الاستغراب المنطلقة من الناس كأنها تريد اختراق رأسي ورأس أبي فيعرفون ماذا نخبئ في هذين الرأسين ،،، ولمحت عن بعد في المحطّة أحد أصدقائي وقلت في نفسي ها أنه جاء لانقاذي من هذه الفضيحة ... ولكن أبي شد على ساعدي بقوة وأمرني بأن أصمت .. وبأن لا أتحرك .. وبأن لا أنادي لأحد .. فالظرف يقتضي أن نبقي وحدنا .

دعني أطلب الله لك يا مجنون .. انك ذاهب الى بلدة فيها مغريات ستشغلك عن الجنة .. فيضيع منك الثواب والقصر والاقامة الرضية ..

ارفع بصرك معي الى سماء ... ودعنا فيما نحن فيه .. إنها لحظات التجلي .. يا أحمق ... انظر كيف تبدو السماء

وكأنها طريق طويل مأمون ينتهي بك الى حيث تجد السعادة الكبرى ..

وفي هذه اللحظة تيقنّت من أن أبي ليس على ما يرام .. لقد خرج نهائيا من هذه الدنيا .. انه الآن في عالم آخر .. انه انسان ليس من هذه الأرض ، وفجأة أخذ يبكي ويولول ويصيح بملء صوته

يا رب هذا ابني سيضيع ..

سيفقد الجنة .. سيخسر قصره

واقترب منا الناس .. وأحاطوا بنا .. وأصبحت أنا و أبي في وسط حلقة .. واضطربت .. ورجوت أبي ان يكف عن البكاء والصياح .. ولكنه لم يكن يسمع .. كان يردد جملة واحدة يا رب هذا ابني الذي يريد ان يستبدل الجنة بالدنيا ..

واحترت .. ولم أفهم كيف أواجه هذا الموقف .. ولم ينقذني من هذا الذي أنا فيه الا وصول الحافلة .. لقد وصلت وبدأ الناس يتدافعون نحوها .. قبلته .. وانطلقت أعدو في اتجاه الحافلة .. وحشرت نفسي وسط جمع الركاب وما هي الا لحظات حتى جلست فوق مقعد وأنا أتصبب عرقا .

ونظرت من النافذة فإذا أبي هائم ... صامت ... هادئ ..
وقد أحنى رأسه .. كان كالمهزوم ... كالخائب .. كالجنديّ
الذي فقد سلاحه في المعركة وعاد الى أهله بمرارة
الهزيمـــــة ... ولكن هل كنت أنا السلاح الذي ضاع منه .
لا أدري .. كل ما أعلمه أنه لم يرفع بصره حتي بعد أن
انطلقت الحافلة .

لقد بقي في مكانه كالتمثال .. جامدا لا يتحرك ...
وشعرت بوخزة صغيرة في جانبي الايسر .. كأنها شكة ابرة
.. فآلمتنى قليلا حتى أنني نسيت لبعض الوقت ما حدث لي
مع أبي قبل أن تبدأ الحافلة في التحرك .. وضعت يدي على
موضع الالم واتجهت ببصري نحو جانب الايسر وضغطت
عليه بيدي فشعرت بشيء من الراحة .. وسحبت يدي برفق
ووضعتها على ركبتي .. وأخذت اتطلع الى وجوه الركاب ...

هو وانا

عندما كنت طفلا صغيرا كان أبي يحملني بين ذراعيه ويلثمني ويغطي وجهي بقبلاته ويهدهدني الى أن أنام ،،، يريد ان أكون نائما دائما ،،، واحيانا اخرى يحملني بين ذراعيه كلما بكيت ويقول لي ليتني كنت امرأة لارضعك ،،، انه يريد ان لا أبكي أبدا ،،، انه يكره الدمـــــوع ،،، دموع الرفض والتحدي والتمرد ،،،

كبرت ،،، وكبرت مشاكلي ،،، وكبر ابي وكبر عقله ،،، وافترقنا افتراق العقول لا افتراق الاجسام ،،، التقي به ويلتقي بي وكل واحد منا سأبح في افكاره ،،، جالس مع نفســه ،،، نفسه تحدث نفسه ،، كل واحد منا متمسك بذاته وبأفكاره ،، حوار اخرس بيننا ،،، هناك جدار يفصل بيننا ،، انه جدار شفاف ولكنه سميك بحيث يفصل صوتي ،، هو يفكر وانا افكر ولكن كل واحد على طريقته الخاصة ،،، هو يفكر في خيانة المرأة ،، في الانتقام ،،، في الثأر ،،، في رأسه فكرة ثابتة اسمها « خيانة تحتاج الى انتقام » ،، لا فرق بينه وبين إليكترا ،، لا فرق بينه وبين بطل « رجل في جيبه ثلاث

رصاصات » لاحسان عبد القدوس الذي ذهب الى الحرب وهو يفكر في الانتقام ،،، وبين تفكير ابي والواقع مسافة طويلة اطول من المسافة التي يجريها القمودي ،،، انه لا يفعل شيئا إنه عاجز عن الفعل ،،، يشرب ويأكل ويدخن ،،، انه عبد للمرناق والحلوزي والاكسبريس أمّا انا فأفكر في اشياء ضبابية لا صلة لها بالواقع ولا بالخيال ايضا ،،، انا الا أفكر كما يفكر أبي ،،، أو كما تفكر اليكترا أو كما يفكر بطل احسان عبد القدوس ،،، مواضيع المرأة والخيانة لا تجد مكانها تحت شمس عقلي ،، حتى اذا حدث فانها تحترق كاى عودثقاب ،، أنا امارس هواية التفكير السري ،،، أريد صنع طريق طويـــل ،، طويل لا ينتهي ابدا وأريد ان امشي على هذا الطريق بلا خوف ،،، لا رهبة بلا رقابة واحلم بأن آكون على هذا الطريق كالقطار الذي يمشي بسرعة لا يعرف محطات أو علامات وقوف .. انني احلم بانقاذ سيزيف ،،، انني احلم بطريق واضح فيه خبز وحشيش وقمر ،،، وفيه نسيم وهواء وعطر ،،، ان المطر الذي احلم به يشبه الى حد بعيد مطر الشاعر الذي قهره المرض ،،، وقتلته الحيرة ،،، انه مطر بدر شاكر السياب .

ابي لم يجد طريقه ،، ولم يبحث عنه ولم يفكر فيه ،، وجد

نفسه على طريق يمشي انه يمشي على هذا الطريق كسيارة الكترونية مقادة ،،، لا تملك الا ان تسير ،،، يمشي وعلى عينيه عصابة سوداء ،،، وينظر بعيون الآخرين ،، يتكلم بلسان الاخرين ،، ياكل باسنان الاخرين ،، ويفكر بعقول الاخرين ،،، ويمشي على أقدام الاخرين ،، إنه ليس هو ،،، انه من صنع الاخرين ،،، انه يعيش في حالة هروب دائم ،،

اما أنا فأريد ان أكون أنا ،، أريد ان أصنع طريقي ،،، وأريد ان أصنع رأسي ،،، وأريد ان أفتح قلبي وعقلي وعيني ،،، باختصار أريد ان أمارس هواية التفكير العلني .

رجل يبكي

كانت السيارة تسير ببطء فالشارع ضيق ، وحركة المرور بطيـــــئة ،، والامطار تنزل بغزارة ، والرؤية غير واضحة .

كنت انا بداخل السيارة صحبة صديق اصر على مرافقته الى مكان ما ...

كان صديقي يقود سيارته ويتطلع نحوي بين الحين والآخر ليرى ان كنت اصغي بانتباه الى نزار قباني .

وكان صوت نزار يملأ السيارة فيحجب كل ضجيج الشارع وكنت استمع بالفعل بكل انتباه الى نزار من مسجل السيارة .

كانت قصائد نزار تصف بعنف واقع الوطن العربـــي ،،

انها تتحدث عن المال العربي المبعثر في الكباريهات وفوق موائد القمار وعلى صدور الحسناوات في أوروبا .

وفجأة توقفت السيارة فهناك كهل يريد أن يرمي بنفسه

على السيارة ،، وتقدم هذا الكهل من صديقي ،، كان يبكي ،، كان يتاوه ،، كان حزينا وبسرعة يمكنك ان تلاحظ بحاستك السادسة ان الرجل لم يكن يمثل ،، أو يدجل وانه لم يكن يلعب لعبة استدرار العطف والشفقة .

كان الرجل يبكي كالاطفال ،، ويطلب خبزا ،، ورغيفا ياكله قال انه جائع ، وأنه يائس ،، وانه بائس .

هل رأيت الرجال يبكون ؟

هل عرفت يوما كيف يجوع الرجل وكيف يفقد كرامته وكيف يتساوي مع الحيوان ؟

توقفت السيارة ،، ولكن نزار لم يتوقف ،، لقد واصل قراءة شعره .

اعطى صديقي ما اعطى للرجل . اما انا فلقد صعقت .. شعرت بشيء من الذهول والحيرة ،، لقد غبت لحظات عن الوجود فلم اعد اسمع .. أو أرى ،، أو اعي ،، فقدت القدرة تماما على النطق والتصرف .

انها لحظات كريهة ،، مريرة ،، صعبة ،، يهرب فيها

الانسان من نفسه .. ومن الوجود ،، ومن الناس ،، ومن هذا العالم الذي مازال فيه برغم الحضارة برغم التقدم ،، يموت الانسان جوعا .

مهما كانت اعصابك من حديد ،، مهما كنت قويا ،، فانك لا تستطيع مواجهة هذا الموقف

إن بكاء الرجال ليس مسألة عادية ،،

ما ذا سأقول ؟

ماذا سأكتب ؟

انني لا أستطيع ان أفهم كيف ان الحد الأدنى من أسباب الحياة الكريمة لم يوفر بعد .

نزار لم يصمت ،، وهجومه الشعري متواصل ،، وتعريته للواقع العربي مستمرة ،، والسيارة تحركت لتمضي في طريقها ، والرجل الذي يبكي اختفى ،، والمطر مازال ينزل مدرارا ،، والحكاية لم تنته .

لغــــــــز

الشيخ الذي لا يعرفه أحد يجلس في ركن من أركان سقيفة الجامع ... لف جسده في الخرق البالية التي تحولت بفعل الزمن والاستعمال الى قطع مثقوبة كالغربال ... لا أحد من الحي يعرفه ... ولا أحد يعرف اسمه الصحيح ... أو قل ان لا أحد من السكان حاول ان يسأله من اين جاء ... وما اسمه .. وما هي قصته .

انه قصة مهملة ... لم يقرأها أحد ... ولا أحد يحاول ان يفهمها ، قصة مجهولة لرجل مجهول يسعى بين الناس في ذلك الحي الشعبي الفقير .

رجال هذا الحي يعملون طول النهار ... وفي المساء يجتمعون في خمارات العاصمة ... يشربون حتى الثمالة ثم يعودون الى الحي ليزيدوا الى بؤسه بؤسا ويضيفوا الى ضجيجه ضجيجا .

في الليل الكلاب الجائعة في الشوارع .. تبحث في المزابل عما يسكت أنينها ،، والنساء في البيوت تتخاصمن

مع الأزواج .. والاطفال يصرخون ... ومن جميع البيوت تتصاعد اصوات المرضي والمسلولين فتختلط لتكون في النهاية اغنية حزينة جدا ... كلماتها غير مفهومة ... وايقاعها رتيب يقطر حزنا ...

وفي النهار والليل الشيخ جالس في مكانه لا يتحرك... لا يغادر الركن الذي احتله منذ سنوات لا أحد يسأل عنه ... ولا هو يسأل النـــاس ...

وفي الحي أرملة مات زوجها في ظروف غامضة ... لا أحد يعرف كيف مات ... خرج ذات يوم الى عمله ... وكان بنـــاءا ... فلم يعد الى الآن ... ولما ذهبت تسأل عنه ... قالوا لها انه مات ... وسيتولون دفنه .. ووعدوها بالمساعــــدة ... صرخت المرأة .. بكت... ضربت بيدها على وجهها .. ولم يرحمها أحد ... طلبت ان تلقي نظرة .... مجرد نظرة على زوجها الميت ... قالوا لها : سنعطيك مساعدة شهرية ...

والحت ... واستعانت بزيد و عمرو من وجهاء الحي .. ولكنهم رفضوا ان ترى الزوجة الزوج الميت .

وطلبت ان تفهم كيف ومتي مات فقالوا لها . سنعطيك مساعدة شهرية .

وبقيت حادثة موت الزوج اللغز المستغلق عن الفهم في الحي .. لا احد في الحي فهم كيف مات الزوج ... حتى الزوجة لم تفهم ..

والقصة الوحيدة التي عرفها الشيخ هي قصة الزوج الذي ذهب الى العمل .. فمات .. رواها له صبي صغير .. من صبيان الحي ...

ومن يومها والمرأة تتصدق على زوجها الذي خرج .. ولم يعد ... وكانت الصدقة يومية تعطيها الى الشيخ الذي لا يعرفه أحد ...

وكان الشيخ يتلقى الصدقة بنفس راضية .. يأكل ويشرب ويشكر القدر الذي جعل زوج هذه المرأة يموت فأعطاه بذلك فرصة الأكل والشرب .

قبل ان يموت الزوج كان الشيخ لا يأكل الا لماما .

كان يئن في الليل مع الكلاب الجائعة .

رجـــل قتلـــه الكـــــلام

كان كالابكم .. وما هو بالابكم وكان كالاطرش وما هو بالاطرش وكان كالمجنون وما هو بالمجنون .

انه كئيب حزين دائما .. الناس من حوله يمرحون ويضحكون ويصخبون وهو الباكي الشاكي ،، ينظر فلا يرى .. ويتأمل فلا يظفر الا بالغثيان .. ويأكل فلا يجد متعة ...

ينام فتلسعه نيران الكوابيس .

كانت حياته كالجحيم .

فحصه الاطباء فما توصلوا الى علاج ... كانوا يعطوه بعض المسكنات ولكنه سرعان ما يعود الى حالة البلاهة ،، والجنون الشبيه بالحمق ،، أو هكذا كا يخيّل الى الناس .. أنفق سنوات من عمره في المستشفيات فما نفع معه علاج .

حملته أمّه الى القرى البعيدة وعرضت أمره على هؤلاء الذين يكتبون التمائم فرفعوا أيديهم وقالوا لأمّه : عودي بابنك من حيث أتيتما وانتظري رحمة ربك فهو وحده القادر على

مثل هذه الحالات .

صلّت طويلا من أجله أمّه .. وكل شيوخ الحيّ .

قال عنه أحدهم ذات مرة وهو سكران : أنا أعرف الدواء الذي يداويه .. سئل عن الدواء .. فقال وهو يتلعثم · زوّجـــوه .. ففي الزواج متعة وراحة .. وانطلاق ... وبعد ان يتزوج سيبرأ من مرضه ... أو يصبح فيلسوفا مثلي أنا .. فلقد هبطت علي الفلسفة بعد ان تزوجت وها أنا أوزع هذه الثروة الهائلة بين السكارى في الحانات ،، وأعطي السعادة للناس .

بحثوا له عن صبية عذراء .. جميلة .. ذات حسن وجمـــال .. وأعدوا له البيت المستقل وأثثوه بأفخر الاثاث .. وأدخلوه على الصبية بعد ان أقاموا الافراح والليالي المـــلاح .. ولكنهم فوجئوا بأن الصبية قد أصيبت بما يشبه اللوثة العقلية منذ الليلة الأولى .

قالت لهم : لقد ظلّ منذ أن دخل عليّ يحكي ويتحدث ويهذي أحيانا الى أن أدمي قلبي .. فسكنني الحزن .. انني كئيبة .. بل أنا مريضة فقدت الصحة والابتسامة .. واكتشفت

أن حياتي ما كنت إلا غيبوبة .. أنا الان انسان آخر .

وسألوها بلهفة هل حدثك .. هل حكى لك .. أجابت بل كان كالنهر المتدفق ... ما صمت الا مع اطلالة الصباح .. وما سكت الا عندما طرقتم علينا الباب .

وحينما سمع هو ما قالت عنه الصبية ارتعد وخاف .. وسقط مغشيا عليه

جاء الطبيب ،،

قدمت سيارة الاسعاف ،،

وفتح المستشفى أبوابه ،،

ومر يوم .. ثم أيام ،، ثم سنوات والرجل مغشي عليه .. فلا هو بالميت . ولا هو بالحيّ ..

فرفع الاطباء أيديهم ،، وقالت أمه ربّي انقذه من هذا العذاب .. وقال الناس لا حول ولا قوّة الا بالله ... ليته ما تزوّج وما تكلم .. فلقد كان مقتله بين فكّيه وفي كلامه .

المرأة التي كانت تحارب العطش بالسيف

ان التعاسة تطاردني حتي وانا مع أعز الناس ... مع أحب الناس ... مع ذاتي ... صدقني يا دكتور ان الدنيا بنت كلب ... ولا يمكن ان تكون الا بنت كلب كبير مريض ... صدقني يا دكتور ان الدنيا تعبث بنا ونحن لا ندري ... انها شهريار ... يعبث بضحاياه ... ويسبح في دمائهم ... وبكيـــت ... بكيت طويلا ... ونسيت كل شيء ... فقدت صلتي بالاشيـاء ... حتي حبيبتي نسيتها كدت اجن .. كدت اصرخ في تلك الليلة ..

وفي الليلة التالية خرجت ....

....

نفس النتيجة ... لم اقدر يا دكتور الا على البكاء .. هل فقدت رجولتي .. هل ضاعت فحولتي .... لا ... لا يمكن هذا ... غير معقول ... لماذا لا أفشل الا مع حبيبتي ... لماذا افقد رجولتي الآ مع زوجتي التي بحثت عنها طويلا ... ان زوجتي

حلم اتعبني البحث عنه عندما وجدته فقدته ... لماذا هذا العذاب يا دكتور ؟ ... مع كل النساء انا رجل ... الا مع حبيبتي الحزينة انا عاجز ... شهور طويلة مرت وانا على هذه الحال ... شهور طويلة وانا أعيش رحلة العذاب ... وحبيبتي تتعذب معي ... وتنتظر مني أن أتحول الى رجل ... أعطني الدواء يا دكتور بسرعة والاّ فسأقتل نفسي ... اعدني الى حبيبتي يا دكتور والاّ فسأشنق نفسي .

ستة اشهر وأنا أحاول ... وأنا أجرب في كل ليلة ... ولم أجد الاّ الصدمة في انتظاري ... وحبيبتي ... زوجتي تنتظر مني ان أعطيها الدفء واللذة والمتعة ... لقد بدأت تمل الإنتظار ... لقد انتظرت طويلا وبلا فائدة ... كل ليلة تسبقني الى غرفة النوم وتتزين وتتجمل وتغسل جسمها بالعطور . انها تتحول الى قطعة من المسك ... وتنزع ثيابها وادخل أنا الى غرفة النوم ادخل لأبكي فقط ... انني أتحول أمامها الى تمثال من الرخام ... لم أفهم لماذا يا دكتور لا أستطيع مع زوجتي ... لم أفهم لماذا استطيع مع المومسات ... مع نساء الاخرين وأفشل مع التي أحبها ... مع التي بحثت عنها طويلا ... مع التي أرهقني البحث عنها .. لماذا هذا العذاب يا دكتور ... أرجوك ان تسرع بحل هذا اللغز ... أرجوك ان

تريحني من هذا العذاب ... أنني أتعذب ... انني أتألم .. إنني أتمزق ... وزوجتي صبرت طويلا ... وستنفجر في يوم من الأيام وسيكون انفجارها إنها تريد الرجل الذي يطفئ لهيبها ... صحيح انها تحبني ولكن لا حب بدون جنس ... إن الحب لا يعيش ويستمرّ وينمو ويزهر الاّ بالجنس ... انهما يعيشان معا في تعايش سلمي ما داما لا ينفصلان وعندما ينفصلان تبدأ الحرب بينهما ... إنها حرب صامتة ... بلا نار ولا دخان ... ولكنها حرب أعنف وأشد من حرب الفيتنام ... وفي النهاية ينتصر الجنس ... وحبيبتي تدور في داخلها الان حرب ... حرب عنيفة بين الحب والجنس ... بين الفضيلة والرذيلة ... بين الاخلاص والخيانة ... إنها تتعذب مثلي تماما ... وسينتصر في النهاية الجنس ... ستصبر اياما اخر ولكنها تضعف في النهاية أمام الرغبة التي توشك أن تكسر عظامها ... إن الرغبة تقتلها .. ستة شهور وهي تتألم ... كل ليلة تنتظر مني ان أسقيها ... أن اشبعها ... أن أوقف الحرب الدائرة في داخلها ... كما تفعل الامم المتحدة بالضبط ولكن انتظارها يتحول الى انتظار جديد ... إنني - أمم متحدة فاشلة .

دعني ادخن سيقارة يا دكتور ... لقد تعبت من الحديث

عن مأساتي ... تعبت من لساني ... تعبت من الحياة ... باختصار أقول لك يا دكتور اني اتخذت هذا القرار ... إنه قرار خطير ... ولكنه حاسم ... لقد قررت ان اعطي لنفسي فرصة أخري ... مدتها خمسة أيام ... نعم خمسة أيام فقــط ... ستقول ان خمسة أيام فترة قصيرة .. قل انت ما شئت يا دكتور .. إنها قصيرة في منطقك ... غمضة عين في حسابك ... أما في منطقي وفي حسابي فإنها أطول من خمسة أعوام ... ان خمسة أيام كانت كافية بالنسبة لإسرائيل ان تكسب المعركة وتحتل أجزاء كبيرة من أراضينا ... لا يهــم ... المهم الآن هو مشكلتي ... قضيتي ... بعد خمسة أيام يا دكتور سأذهب الى عمارة افريكا ... واصعد الى فوق وأرمي بنفسي ... وانتهي وينتهي عذابي ... وينتهي حرمان حبيبتــي ... زوجتي .... ان العطش سيقتلها ... والظمأ سيفنيها ... تصور يا دكتور انها نقصت خمسة كيلو منذ أن تزوجتها ... لقد ذبلت ... إن العطش حولها الى امرأة مرهـقة ... الى امرأة كحبة التفاح الصفراء المريضة ... انها تريد ان أسقيها ... انها أرض عطشانة ... وأنا بداخلي الماء ولكني لا أستطيع أخراج ما في داخلي ... هناك انهار تجري في داخلي من الماء ...

ولكن هذه الأنهار تجف بمجرد أن ألمس حبيبتي ...

- الى متي سأتعذب يا دكتور ؟

- الى متى ستبقى أنهار المياه جافة في داخلي ..

- الى متى ستنتظر الأرض المطر ؟

- أرجوك يا دكتور انقذني من العذاب

- وانقذ حبيبتي من الحرمان

إن زوجتي الآن مثل زوجة أحد ملوك الاغريق ... كانت هذه الزوجة محرومة من الماء ... وكان زوجها يعجز عن إعطائها الماء ... كان يحاول مثلي ولكنه يصاب بالخيبة في كل مرة ... إنه رجل فاشل في هذا الميدان ... وكانت هي تبكي في كل ليلة ... جسدها يعذبها .. الحرمان يقتلها ... وحاولت ان تخونه .. حاولت ان تبحث عن الماء في خارجـــه ... في مكان آخر ... ووجدت بحارا من الماء ... واقتربت في يوم من الأيام من الماء ... وأحست بالرغبة الجامحة تدفعها ... تقتلها ولكنها خافت ... خافت من الفضيحة ... وجدت نفسها بين نارين .. نار الحرمان والرغبة

والشهوة ... ونار الخيانة والفضيحة والعار ... وكادت تحتــرق .. وهي التي تحترق ... فتراجعت ... ابتعدت عن الماء ... خافت من الماء ... فضلت ان لا تشرب ... اختارت ان تعود الى نار الحرمان والرغبة والشهوة ... وجسدها دائما يعذبها ... يكويها .. وفكرت طويلا ... واهتدت الى فكرة ... اخذت سيف الملك ... سيف زوجها ومارست به الخطيئة .. وتعودت على الممارسة ... كل ليلة تأخذ السيف ... وتبدأ بشيء من الملامسة والمداعبة ... وتعامل السيف كأنه زوجها بمنتهى الرقة واللطف .. ثم تشده بقوة .... ثم ....

....

الى ان تصل الى الذروة ... واستطاعت بهذه الطريقة ان تقضي على الحرمان ... وارتوت ... حاربت الحرمان والعطش بالسيف ... وذات ليلة حدث شيء مريع ... لقد تجاوز السيف الحد .... دخل الى احشائها ... اللذة كانت عنيفة يا دكتور في تلك الليلة فعلت ما لم يخطر على بال أحـــد ... لقد ماتت يا دكتور وهي تحارب العطش والحرمـان بالسيف . وأنا لا أريد لزوجتي ان تفعل مثل زوجة الملك ... لا أحب لها ان تحارب الرغبة والحرمان بالسيف ... أنا أحب ان تحارب الرغبة والحرمان عن طريقي .

وانا متيقن ان صبرها بدأ يفر منها ... أنا متيقن ان الرغبة ستقتلها وتدفعها على الذهاب الى أقرب نهر لتشرب منه .... إنها امرأة يا دكتور ولا تستطيع ان تصبر أكثر من ستة شهور ... ان ضعفها سيحملها على السباحة في أي بحر ... وأنا لا أريد ذلك ... أريد ان أكون أَنا لها النهر والبحر ... أريد ان أقنعها برجولتي وبأنني َقادر على .... فمتى يا دكتور ستشفيني من هذا المرض ...... متى ستعيد الي قدرتي على الممارسة .... متى يا دكتور لقد أطلت .....

دمـــوع حبيبتـــــــــي

شمبانيـــــــــا

دكتور ،، لقد بدأ الملل يتسرب الى داخلي من كثرة التردد على عيادتك .. منذ ستة شهور وأنا أزورك مرة كل اسبوع ،، واتمدد على هذه الاريكة واحكي لك عن كل شيء في حياتي .. منذ شهور وانا اكرر نفس الشيء ،، اخرج من بيتي في ساعة معينة وفي يوم معين ثم امر من شوارع معينة لاصل الى عيادتك في وقت معين ،، ثم تستقبلني بطريقة معينة ،، واحكي لك عن كل شيء في حياتي ،، هذه الاشياء المعيَّنة اصابتني بشيء اسمه الملل ،، لماذا لا تشرح لي حالي يا دكتور ،، لماذا لا تعطيني الدواء ،، لماذا لا تخلصني من عقدتي ،، إني فقدت ثقتي فيك ،، لا لا تغضب مني يا دكتور ،، كل مريض يبحث عن الدواء ،، انه يريد العلاج بسرعة ،، انت الوحيد الذي يقدر حالتي ، لا يهم..

سأعيد عليك قصتي ،، لا تغضب يا دكتور اذا اختصرت هذه المرة فأنا متعصّب وأحاول التخفيف من ازمتـــــي

النفسية ،،

الطفولة صورها باهتة في ذهني كل ما اعرفه يا دكتور اني كنت لا العب كثيرا مع الاطفال ،، لا اخرج الى الشارع ،، افضل اللعب وحدي ،، أو القراءة في كتاب القراءة بصوت عال ،، اردد الدرس عشرات المرات واقرأه بصوت عال عشرات المرات وحياتنا في العائلة كانت كئيبة ،، فيها البكاء والالم والمرارة لا تغني ولا تضحك ولا تفرح ، ابي لا يدخل الدار الا ليصيح ويزمجر كأسد جائع وامي مريضة دائما ،، وحزينة ابدا ،، وبيتنا ظلام فـــي ظلام ،، ولم انجح في دراستي ،، وبقيت في البيت ،، أساعد امي في اعمالهـا البيتية ،،

كنت انا أكبر اخوتي سنا وكنت انا أول العنقود يا دكتور وبعد شهور تحصلت على عمل ارهقني واتعبني واذلني ، ولكن ماذا افعل ؟ ،، ان الجوع هو الذي دفعني على العمل لقد مرض ابي وحملوه الى المستشفى ،، وبقيت انا واخوتي وامـي ،، انا رب الاسرة ، لقد اكتشفت يا دكتور ان لي ابناء وانا لم اتزوج ،، مسؤول عن خمسة اطفال وثلاث فتيات ، كلهم ابنائي وامرأة معهم هي امي ، ام ليست كبقية

الامهــات ، انها ضعيفة في كل شيء ،، حتي الضعف في النظرة الى الاشياء .

ومع تقدم العمر ،، تطورت نظرتي للاشياء وللحياة ،، قرات لكتاب الشرق والغرب ،، وقرأت لالبير كامو كل كتبه وتاثرت بفلسفته ،، وآمنت بالعبث ،، واحببت شخصية هاملت ،، وعشقت الحزن ،، ان الحياة يا دكتور لا قيمة لها ،، انها طريق طويل يؤدي الى محطة كبيرة اسمها الموت ،، انها رحلة عذاب طويلة تنتهي بالانسان الى الفناء ،، مامعنى هذا كله ؟ .. معناه ببساطة عبث في عبث ،، ولكني احس يا دكتور بان على لساني شيء من المرارة ،، هذا الشيء موجود على لساني دائما ،، انه ، موجود الى الآن ،، كانه جزء من لسانــي ،،

صدقني يا دكتور انني اكره الناس الذين يضحكون ،، اكره كل شيء يضحك ،، اكره ايام الربيع اكره الحفلات الماجنة ،، لاأحب الا الحزن ،، اللباس الاسود يعجبني ،، المطر احبه ،، الخريف يلهب عواطفي ،، السماء المغطاة بالسحب الرمادية سمفونية أحب سماعها دائما ،، عبد الحليم حافظ يعجبني لانه مطرب حزين ،، نجاة الصغيرة صوتها

يدخل قلبي بلا واسطة لان اغانيها حزينة ،، كلود نيقارو ينقر على قلبي لانه حزين ،، انني احب الحزن ،،، واردد دائما قول فرانسواز ساغان مرحبا ايها الحزن ،، والاقوال الحزينة دائما تعجبني ،، لا شيء في هذه الحياة يشجعك على الضحك ،

والناس الذين يضحكون قلوبهم قاسية ،، ويميلون الى النفاق ،، ولا يحملون الحياة على محمل الجد ،، ان قلوبهم تصافح كل صباح الخداع والغش ،، صدقني يا دكتور عندما اقول لك ان قلوب هؤلاء الناس من طينة خاصة ،، تشكلها الظروف والاحداث ،، انهم لا يثبتون على مبـــــدأ ،،

دعني ادخن سيقارة ،، ثم أواصل الحديث ،، السيقارة تساعدني على تذكر الماضي ،، ايه ،، السيقارة اشتعلت ،، وانا اعمل يا دكتور تعرفت الى فتاة لم تكن زميلتي في العمل لا ،،، وانما كانت تتردد على محل عملي ، هذه الفتاة التي كانت تأتي كل يوم الى محل عملي لم تكن الأولى في حياتي ، ولكنها كانت الأخيرة في حياتي ،،، تعرفت الى كثير من الفتيات ،، ولكن علاقتي معهن كانت تنتهي بسرعة ،، انهن تافهات ، وعندما اكتشف تفاهتهن اتركهن ، أما هذه فلم تكن

تافهة ،، أحببتها بصدق ، واحبتني بصدق ،، والحزن هذا الذي جمع بيننا ،، في عيونها يا دكتور انهار وبحار من الحزن غرقت فيها ،، وفي كل عين من عينيها بحيرة لا مارتين عندما تكون حزينة ،، وبقلبها ينبوع ينبع دائما بالحزن ، والصدق قريب من الطهارة والنقاء ووجهها يا دكتور مكتوب عليه ممنوع الضحك ،، ممنوع الابتسام ولباسها محتشم ، والوانه كئيبة في فصول السنة كلها ، وصوتها فيه دفء الحزن ،، وحرارة الصدق ،، واحببتها لهذه الخصال وأحبتني هي من أول نظرة ،، مرآة صافية ترى فيها حياتهـــا مجسدة ،، في نوح ،، وفي قلبي الذي تعيش فيه ماساة لا مثيل لها الا مأساة أوديب أو هاملت وفي ملابسي السوداء ،، وفي تعاستي التي احملها على ظهري ،، اكتشفت كل ذلك من أول نظرة فاحبتني من أول نظرة وحينما نحب بصدق يا دكتور نتخلص من كل المجاملات والبرتوكولات ونذهب الى من نحبه ونقول له بصراحة كلمة ـ أحبك ـ ،، بلا مقدمات وبلا لف أو دوران ، أو انتظار الوقت المناسب ،، والمواعيد الزائفــة ، ان العملة المزيفة لا تروج الا في سوق العواطف المزيفة ،

قلت لها يوما ما رأيك لو نلتقي ؟ قالت بصوتها الدافئ

الحزين ،، ولم لا ؟ لم تسأل ولم تثرثر ، ولم تضحك ،، ولم ترفض كما تفعل عادة الفتيات ،، والتقينا ، جاءت في الموعد تصورّ يا دكتور انها لم تتأخر دقيقة واحدة الم أقل لك انهن ياتين في الموعد الأول حبا في تعذيب الفتيان وجلسنا في مقهى ، وشربنا وتحدثنا في كلّ شيء ، ليست كالفتيات كالاخريات ،، منذ اللقاء الأول صارحتني وصارحتها ، قالت لي انها فقيرة ولم تخرج الي الشارع الا لتعمل وتساعد عائلتها الفقيرة ، روت لي ماساتها في الحياة ، وصوتها دائما يحمل الى قلبي الدفء ،، انها حزينة كمالك الحزين ، قالت لي انني أول شاب يدخل في حياتها ،، وانني أول حب عرفته وصدقــت ، صدقت كلّ حرف في كلماتها ،، وأحببتها أكثر وانتهت قهوتها ،، وانتهت جلستنا ، وانتهى اللقاء ،، وتجدد لقاؤنا أكثر من مرة ، وكنا نلتقي في كل مرة لتحكي هي ولأسمع انا ،، أو لأحكي انا وتسمع هي والصراحة دائما طريق يجمع بين القلوب ... لانفاق بيننا ولا مجاملة ولا قفازات في ايدينا ،، وفجأة قررنا الزواج ،، ووافقت عائلتها ووافقت عائلتي ،، كان حفل الزواج بسيطا ،، بلا مزامير أو طبول .. أو حتــى زغاريد ،، نحن لا نحب المظاهر ،، نحن لا نحب اعلانات عن طريق الحفلات ،، المهم في نظري وفي

نظرها هو ان نرتبط على طريقة المجتمع ،، المجتمع يطلب منا ان نكتب « الصداق » كتبناه ،، انه لا يطالبنا باقامة الموائـــــد والحفلات ،،، ولا بالدق على الطبول والنفخ في المزامير ،، كنت اسعد الناس وكانت اسعد الناس ،، ببساطة افترق الأحباب والاصدقاء وبقيت انا وحبيبتي وحدنا ولأول مرة جمعنا سرير واحد ،، ونمنا ،، وفي الليلة الثانية التقينا على السرير ،، وبدأت في تقبيلها ،، انهمرت الدموع من عينيها ،، بكت بمرارة ،، ان القلب الذي يحب بصدق يبكي عندما يلامس قلب الذي يحبه ،، وبكيت معها ، شربت من دموعها وكأنني اشرب الشمبانيا ،، لم اذق الشمبانيا طوال حياتي ،، ولكن دموع حبيبتي لذيذة كالشمبانيا ،، لقد سكرت بها ،، وعدت اقبلها ثانية ، قبلتها واغرقتها بقبلاتي ،، وكانت كل قبلة مقدمة لقبلة اخرى ،، وبعد القبلات جاء وقت ،،،،، ولكن حدث شيء مريع ،، شيء فظيع شيء حطّم حياتي ،،

الذاكـــــــــــــرة

الشارع الطويل يخيفني ،، يرهقني ،،، كلما خطوت خطوة ازداد خوفي .. اني احس بالرعب في قلبي ،،، احس بطعم الرصاص على لساني ،،، قلبي خرج من فمي وكاد يسقط على الأرض ،، اني احتضن قلبي بيدي ،، هذا الشارع يرهقني ،،، يقتلني خوفا ،،، احيانا يفقدني السيطرة على أعصابي وعقلي فاتحول الى حزمة من العظام ،،، بلا روح ،،، وبلا قلب ،،، انا في هذا الشارع كلاعب السيرك الذي يمشي على حبل مشدود في الهواء ،،

الشارع طويل جدا ،،، كله ظلام ،، كله سواد لا شيء فيـــه ... حتي القطط الجائعة هجرته ،،، حتى الكلاب الضالة هربت منه ،، انه شارع بلا بداية وبلا نهاية ،،، ان ظلامه كظلام كهف المعري ،، ان طوله كطول جبل الهملايا وجبل كليمنجارو ،، لا شيء في هذا الشارع الا خيال يمشي ،، شبح يتحرك كأحد اشباح الخرافات ،، صامت طول الوقت ،، خائف دائما ،، متعب غالبا ،، حزين ابدأ كمالك الحزين .

احيانا اتوقف عن السير ،، التفت الى ورائي ،، ابحث عن شيء ضاع مني في هذا الشارع ،، ولكن الظلام أفقدني البصر ،، وعندما اتوقف اتذكر قول احدهم ؟ « ضوء شمعة خير من الظلام » ،،، وابحث عن الشمعة لتضيء الشارع ،، ابحث عنها في كل زاوية من الشارع ،، وبدون جدوى ،، من يبحث في الظّلام لا يعثر الا على الظلام ،،، واتذكر ايضا ان الأمل يمكن ان يضيء طريق البؤساء ،، فاحاول مع املي ،، ويضيع جهدي ،، ان املي ليست له بطاريات انه عاطل عن العمل ،، انه في حالة عجز دائم ،، انه امل اسود كسواد الشارع الذي امشي فيه ومن يبحث عن السواد لا يجد الا السواد ،،

في هذا الشارع الطويل ،، عذبتني الوحدة ،، واضناني القلق ،، وحطم الارق اعصابي ومع ذلك فانا اسير ،، إنني لا أملك الا ان اسير ،، انني اسير السير ،

لا فرق بيني وبين كامل الشناوي في الشارع ،، لقد وجد نفسه ذات مرة في مثل الشارع الذي اسير فيه فشعر انه يمشي على جثته ،، وانتابته رعشة شدته من رأسه الى قدميــــه ،، أحسّ ان شعر رأسه تحول الى دبابيس ، وعرقه

ماء يغلي ،، وانفاسه مبهورة من شدة الفزع ،، وخطواته مثل انفاسه ،،

الفرق الوحيد الذي بيني وبين الشناوي هو انه اخترق الطريق - ذات مرة أيضا بقدمين تنبضان بالطمأنينة والثقـــة ،، اعصابه هادئة ،، هواجسه مسترخية وخياله كسول ،، فوجد ان الشارع لم يعد يخيفه ويفزعه كان له فيه حب حطمه ، عذبه ، ذبحه حاول ان ينساه ولكنه كان يتعقبه ولا يريد ان ينساه وفجأة نسيه حبه ،، نسي ان يتعقبه ،، وبالنسيان استطاع ان يكمل الشناوي بقية حياته ويسير في الشارع بلا خوف وبلا فزع ،، اما أنا فلي ذاكرة قوية انها كالثلاجة الممتازة التي تحفظ الاشياء بأمانة ،، المعروف بسيكولوجيا ان الذاكرة تهمل الذكريات المؤلمة ،، وتحتفظ بالذكريات السعيدة المشرقة ،، اما ذاكرتي فإنها تحتفظ بالذكريات المؤلمة وتهمل كل شيء آخر ،،، الاسماء ،،، المعلومات ،،، الأرقام ،،، الوجوه ،،، المناظر ،،، ولا تحتفظ الا بالذكريات الحزينة المؤلمة ،، أو بكل شيء يؤلمني ..

انها ذاكرة عجيبة لا يعجبها الا الحزن والالم والشقاء والتعاسة ،،

عطشـان يا سيـدي القاضـي

سيدي القاضي ... اسمحوا لي ان اقول بعض الكلمات ثم بعد ذلك اصدروا حكمكم علي ... وسوف أكون مستعدا لتحمل اي حكم تصدرونه ضدي ... ان السجن لم يعد يخيفني .. كنت يا سيدي القاضي احد التعساء على هذه الارض ... ومازلت ... نزلت من بطن امي وانا أبكي ... وأصرخ واستغيث ... والى يومنا هذا مازلت ابكي واصرخ واستغيث ...

وجدت نفسي في عائلة فقيرة جدا .... انها الفقر بعينه .. فقد جاءت من الهند وترعرعت في حي فقير جدا ... وتربيت مع اصدقاء الفقر .... كل ما احاط ويحيط بحياتي هو الفقر .... ولما بلغت سن الرشد رحت ابحث عن عمل ... لقد مات ابـــي ... وبقيت انا وامي ... وانا اجري وراءها كالسلحفـــاة .. هي هاربة وانا اجري ... وفي الليل اعود الى البيت بأقدام حافية تقطر دما وجسم مهدود بالتعب وقلب مكدود بالهم ... حياتي كلها سلسلة من الهموم الكبيرة .. انني اعيش في سجن العذاب ... اتنفس العذاب ... وانام

على سرير العذاب ... لا اعرف الاعياد ... ولا اعرف العطـــــل ... كل ما اعرفه هو الجري وراء لقمة العيش ... لا شيء يهمني في الدنيا الا الحصول على قطعة خبز آكلها مع امي ...

الناس يتحدثون عن النساء والحب والمقاهي والسينما والشواطئ .. وانا أسمع عن هذه الاشياء فقط ... اما عيني فانها لم ترها ولو مرة ... لم ادخل ولو مرة واحدة في حياتي الى سينما ... ولم انم ولو نصف مرة مع إمرأة .... لا اعرف في هذه الحياة الا الجري وراء الخبزة ...

اما عن عملي يا سيدي القاضي فانه تنظيف القنوات ... اقف كل يوم في باب قرطاجنة وانتظر من يريد ان ينظف قنوات بيته ... في يدي اسلاك حديدية ... ورائحتي رائحة تصيب كل انسان يمر امامي بصداع ... اما انا فقد تعودت عليها وتعود رأسي على الصداع ... وملابسي لونها لون ما في القنوات ... وعيني تبحث عن الذي يريد تنظيف قنوات بيته ... امضيت حياتي كلها في باب قرطاجنة ... لا رفيق لي الا الاسلاك الحديدية والصداع الذي في رأسي ...

ولا اخفي عليك يا سيدي القاضي بانني ادعو الله بين

الحين والاخر ان يعطل جميع القنوات ... ولكن القنوات دائما بخير ... اما انا فاني دائما في عذاب ..

وفي يوم من الايام وقفت امامي سيارة ونزل منها رجل أنيق وتقدم مني وقال لي بلغة آمرة ... « اطلع في الكرهبة وايجه معايا .. » وعاد الى سيارته وتبعته كقط ذليل . وذهبت بنا السيارة الى مكان بعيد ... لا اعرفه . انه حي جميل فيه فيلات تملأ المكان ببياض ناصع ... ان هذه الفيلات بيضاء كاسنان زنجي .. وامام باب احدى هذه الفيلات وقفنا وضغط هو على الزر وفتحت لنا الباب امرأة حسناء .... في عمر الربيع ... ودخلنا .. ثم ادخلاني .. الرجل الأنيق ... والحسناء الى داخل الفيلا ... وامام المرحاض اوقفاني ... وذهبا .. ولم ينطقا بشيء ... وفهمت وحدي دوري .. انهما يطلبان مني ان انظّف قنوات المرحاض .. وشمرت .. وتوكلت .. ثم بدات العمل .. وبعد حين عادت اليّ الحسناء واقتربت مني لترى كيف يسير العمـل ... انه على ما يرام .. انحنت انحناءة صغيرة ونظرت اليّ ان اقول لها كلمة نعم ولكن لساني ضاع مني ... بحثت عنه لم اجده ... لقد ذاب كما يذوب الجيلد ان صوتها يسكت اصوات مدافع نابليون .. ان جمالها يا سيدي كجمال

امرأة ارى صورتها معلقة على الجدران .. انها جميلة كالخبـز ... وعطرها دخل الى قلبي وفجر في طاقات الرجولة الكامنة .. طاقات كانت نائمة في داخلي لم يحركها الا عطر هذه المرأة ... الاسلاك سقطت من يدي ... وشيء ما تحرك في جسدي ... واحسست بارتعاشة خفيفة .. كانها رجة ارضية خفيفة ... وكدت اسقط على أرض (...) وغابت عني الحسناء لحظات ثم عادت وبيدها فنجان القهوة .... وقدمته الي ... ونظرت اليها في هذه المرة ... كان صدرها عاريا ... ولباسها فوق الركبة ... ودنوت منها ... وتعمدت ان المس يدها وانا آخذ القهوة منها ... وترشفت رشفة ... كانت يدي ترتعش .. واصبحت كالمعتوه ... ابتسمت هي . فخيل الي انها تشجعني على الاقتراب منها ... وازددت اقترابا منها حتي اوشكت على االتصاق بها .. وضاعت رائحتي ... رائحة القنوات والخنادق رائحتها ... وسقط فنجان القهوة على الارض فتهشم .. واصبحت ارتعش اكثر ...

وارتميت عليها وسقطنا معًا على الارض .. بدات تصيح .ولكن صراخها لم يكن يصل اذني ... اخذت اقبلها وامزق ملابسها الخفيفة الشفافة ... كنت اقبلها في كل مكان .. ولما تسال يا سيدي القاضي عن اللذة التي احسست بها .. انها

لذة لم احس بها طوال حياتي .. شيء جديد علي ... وكانت تصيح .. وانا كالاخرس .. وفي النهاية توقف كل شيء ... توقفت هي من الصراخ .. وتوقفت انا عن التقبيل ... لقد تحولت الى كتلة من اللحم بين يدي ... وفعلت يا سيدي القاضي مامعلت . ولكنني استمتعت يا سيدي .. كنت عطشانا .. كنت احسّ بظمإ . فوجدت انتعاشي في هذه المرأة ... او ما زلت اذكرها الى الان . انها رائعة .. أروع من الدنيا كلها .. الدقائق التي امضيتها معها انستني انني رجل تعيس .. انها دقائق ... ولكنها عمر كامل بمقياسي انا .. لا أطيل عليكم يا سيدي القاضي .. كلمات اخري وينتهي كل شيء .. ويصدر حكمكم علي واذهب من امامكم .. انا احسّ بالسعادة وانا اتحدث عن هذه الحادثة الاليمة في نظر المجتمع السعيد في نظري الشخصي ... ان امي التي تبكي الان في قاعة المحكمة تجهل ان ابنها اكتشف حياته في هذه المرأة .. انها تجهل انني تحولت الى شيء آخر .. الى انسان آخر .. ببساطة الى رجل ككل الرجال .

سيدي القاضي .. ارجو المعذرة .. لقد خرجت عن الموضوع .. بعد ان انهيت مع هذه المرأة فعلي .. وانا كالسكران .. تركتها جاثمة وخرجت .. حتى الاسلاك

تركتهـــا .. كل شيء تركته في مكانه .. تصور ان اجرتي لم اطالب بها .. ومشيت في الطريق .. وكان الطريق طويلا .. ولا ادري الى أين ينتهي هذا الطريق .. ومع ذلك اخترت السير في هذا الطريق... واشتريت علبة سقائر .. واشعلت سيقارة . لأول مرة دخنت .. واشعلت ثانية .. وثالثة .. وقبل ان تنتهي السيقارة الرابعة مرت امامي سيارة الهلال الاحمر تجري .. وبعدها سيارة شرطة .. سيارة الهلال الاحمر مرت بسلام اما الثانية بدون سلام .. توقفت عن سيرها ونزل منها الرجل الانيق الذي جاءني الى باب قرطاجنة ... لقد عرفته وعرفني .. وجاء يجري وهو كالمجنون .. وتبعه الشرطي ... وحاولت الهرب .. ولكنهما ادركاني بسرعة وفي السيارة حاول الرجل الأنيق ان يضربني لولا ان الشرطي منعه ... ووجدت نفسي في مركز الشرطة .. وانهالت علي اللعنات كانني شيطان .. وبدأت الاسئلة تنزل علي رأسي كضربات دبوس .. وآلة كاتبة تسجل أقوالي ..

هذه هي قصتي يا سيدي القاضي ..

اكتشفت المرأة ..

سيدي القاضي ... هذه قصتي بلا زيادة او رتوش .. انها قصة انسان تعيس قضى عمره يبحث عن القوت اليومي ..

بدأت قصتي عندما خرجت من قريتي ... تركت ابي وامي واخوتي وجئت الى العاصمة .. لقد حدثوني عن العاصمة كثيرا ... قالوا لي انها مدينة الخبز والحب ... فيها الخبز يسعى وراء الناس .. قالوا لي عنها اشياء كثيرة فاحببتها قبل ان اراها ... ووصلت الى العاصمة في يوم شتاء ... كنت احلم بالنساء وبالراحة ... كنت احلم باشياء كثيرة .

وتعرفت على العاصمة ... والتقيت بها لأول مرة ... ووجدت ان الفرق بين قريتي والعاصمة كالفرق بيني وبينك ... الفرق بين متهم وقاض ... الفرق بين الانسان البدائي والانسان الحضري .. في قريتي امراض تمشي على الاقدام ... وجوع يعشش في البطون .. وجهل يملأ الرؤوس .. وهنا مستشفيات وشبع ومدارس وجامعات .. في

قريتي لا تخرج المرأة من بيتها الا مرتين في عمرها ...مرة الى بيت زوجها ومرة الى القبر .. وهنا تخرج المرأة كل يوم وهي سافرة شبه عارية ولا حرج في ذلك ... انه عالم آخر ... عالم كله ضوء ... لقد اكتشفت في ما قالوه لي عن العاصمة حقائق كثيرة .. شيء واحد كان كذبة كبيرة .. قيل لي أنّ العمل يجري وراء الناس يستعطفهم .. لقد خدعوني .. كذبوا عليّ .. كذبة كبرى صدقتها انا الغبي .. ثلاثة شهور وانا ابحث عن أكل .. كدت أموت من الجوع .. اكلت القطط .. صدقني يا سيدي القاضي انني ذبحت القطط واكلت لحمها ... انه الجوع يا سيدي القاضي .. الجوع كافر ... الجوع ظالم .. تعبت من الجوع ومن المشي .. تعبت من الجري وراء الخبز ... تعبت من البحث عن الامل الزائف .. وفي يوم نصحني واحد من ابناء قريتي .. قال لي : (دبر راسك .. وشوف صندوق ... ودبر حكة سيراج و وشويلقة وشيت الصبابط وتوى تشوف... تولي لباس عليك) ومن أين لي الصندوق والسيراج ؟؟؟ قال احنا اولاد بلاد واحدة ...اللي يصعب عليك يسهال عليّ ... خوذ هاو دينار ...اما ايعيش خويا رجعهولي دوب ما تدبر راسك ... هذاك وراس امك ما فضلت توى عام كامل)

اشتريت الصندوق واشتريت السيراج وكل ما يلزم للشيات .. وتحولت الى شيات ... احمل كل يوم الصندوق وادور في الشوارع .. مهنتي البحث عن الاحذية المغبرة ... المتسخة .. واصبحت احسن بان الدنيا غيرت نظرتها لي ... يبدو انها تفطنت لوجودي لقد تخلصت الى حد ما من الجـــوع .. لم تنتفخ بطني ولكنها تحولت الى شيء موجود .. واعدت الدينار الى ابن قريتي .. ان حياتي يا سيدي القاضي يمكن تلخيصها في كلمتين بحث عن لقمة .. والنوم ... تلك هي حياتي . وبين الكلمتين محطة كبيرة .. كبر الارض ... وانا اقطع هذه المسافة الطويلة وعلى رأسي هموم الدنيا وبيدي صندوق مليء بهمومي ومشاكلي ... وبين الهموم والمشاكل يعيش حلم صغير لا يكاد يظهر وسط كومة الهموم والمشاكل .. هذا الحلم يا سيدي القاضي اسمه امرأة ... كنت ابحث عنها في الشوارع ... في كل مكان من العاصمـــة .. ألاف النساء في الشوارع ... الجمال يا سيدي القاضي يتحرك في كل مكان .. جمال محلّي .. وجمال اوروبي .. وجمال امريكي .. وانا انظر الى كل الوان الجمال واتعذب ... واحترق ... انظر الى السيقان الجميلة .. وانظر الى العيون الحلوة .. وانظر الى الاجساد الطرية ..

واستمتـــع .. واتعذب .. واحترق .. شيء واحد يعجبني ويخفف من ماساتي .. هذا الشيء هو الحرية التي اجدها في النظرة .. لا احد يقول لي لماذا تنظر او لمن تنظر .. لا احد يمنعني من ممارسة عملية النظر ... والحقيقة التي لا اخفيها يا سيدي القاضي هي اني كنت أمارس الجنس بعيني .. ولا احد يعارض أو يقول لي لا تفعل هذا وكنت احمد الله على ذلك .. الله حرمني من نعم كثيرة ولكنه اعطاني نعمة النظـــر ... وكنت امارس الجنس بعيني مع جميع النساء ... بلا استثناء ... بمنتهى الاطمئنان انا دائما اختار الاجساد المترهلة باللحم ... انني احب هذا النوع من النســاء ... انني أفضّل النساء السمينات ولكن يهمني جدا ان يكون لحمهن موزعا بطريقة عادلة ... لا احب ان تكون المرأة سمينة في مكان واحد من جسدها ونحيفة في الاماكن الاخرى .. وذات مساء وانا احمل صندوقي ... وابحث عن الاحذية المتسخة ... دخلت الى مقهى .. المقهى هادئ ... عدد الناس قليل .. وفي مكان ما جلس سائح وسائحة ... وتقدمت من مائدتهما ... قلت للرجل بالفرنسية هل امسح لك حذائك ياسيدي .. وفهم الرجل .. قال لي برأسه موافق .. وجلست على الأرض .. وشرعت في عملي .. ومن تحت

الطاولة اكتشفت جسد المرأة .. انه جسد لم تره عيني من قبل .. جسد مكتنز باللحم ... لونه ابيض .. وتنبعث منه رائحة الحياة الآمنة ولم استطع ان احول عيني عن هذا الجسد .. وفي داخلي تحرك شيء .. اصبحت ارتعش .. الارض تحتي ترتعش .. الجدران حولي ترتعش .. لم اعد قادرا على مسح حذاء الرجل .. ففقدت اعصابي امام الجسد الطري .. اللامع الابيض .. اراه بعيني لا بخيالي .. ومن تحت الطاولة .. هجمت بيدي على الجسد .. وبدات اداعبه .. واقتربت منه بوجهي وقبلته بكل وجهي ..

وصاحت المرأة .. وصرخ الرجل معها .. وجاء النادل .. وجاء كلّ من في المقهى .. انها الفضيحة .. وسقطت الطاولة .. وتحطم صندوقي .. وبدأ الناس يعلّقون على ما حدث ، وجاء الشرطي .. وقادني الى مكان يفوح برائحة الفضيحة .. والبقية تعرفها يا سيدي القاضي .. انني امامكم الآن .. لا أطلب منكم العفو .. ولا أطلب منكم الغفران .. ولكن أطلب منكم ان تنظروا اليّ كانسان مريض ،، لا دخل له في مرضـــه .. انه القدر يا سيدي .. او ربماسوء الحظ .. او لعله شيء آخر لا أعرف اسمه ...

وكانت اول جريمة ارتكبها

سيدي القاضي .. اعترف انني قتلت .. انني ارتكبت اكثر من جريمة واحدة .. انا ضحية البحث عن الحقيقة ... لا تهزأ يا سيدي القاضي مني اذ قلت لك انني لم أقتل الا لانني بحثت عن الحقيقة .. سيدي القاضي عمري ضاع ... السنوات فرت مني .. والشيب غطي رأسي بسبب شيء واحد اسمه الحقيقة ..

مشيت في طريق الفضيلة ... ومشيت في طريق الرذيلـــــة ... سنوات طوال قضيتها وانا امشي في كل الطريق بحثا عن الحقيقة ... بحثت عنها في الضوء وفي الظلام ... بحثت عنها في عيون الناس ... في قلوب الناس ... في جيوب الناس ... في اجساد الناس ... وفي النهاية وجدت ان لا حقيقة في هذا العالم ... لا وجود لها البتة ... انها كلمة مزيفة لا مكان لها في القاموس ... مكانها على شفاه الناس فقط ..

في بداية عمري آمنت بالخير والمحبة والفضيلة ... صدقت الكليشيات التي رفعوها بداية من المسيح الى جبران

خليل جبران ... صدقت وآمنت وحاولت ان اعمل بأقوالهم .. الناس قلوبهم طيبة ... ومن صفعك على خدك اليمين ادر له اليسار ... ولكن ... اتضح لي بعد التجربة والمعاناة ان هذا الكلام ببساطة كلام فارغ ... وكله خواء ... ظاهره لون الذهـب .... وباطنه في قيمة الصديد .... لا شيء يستحق الإحترام والحب ... لا شيء يستحق التضحية والبذل ... وستعرف يا سيدي القاضي كيف توصلت الى هذه النتيجـــة ... سأروي لك قصتي باختصار شديد انها قصة انسان تعب من شيء اسمه البحث عن الحقيقة ...

ذات ليلة تعرفت عليها ... ببساطة تبادلنا كلمات الحـــب ... ومنذ نهاية اللقاء الأول اعترفت لها بالولاء .... رغم انها يا سيدي القاضي امرأة لا يتشرف الكثير من الرجال بصداقتها انها امرأة ليل ... تعمل باحدي كباريهات العاصمة .. اما انا فلقد ضربت بكل كلمات الكرامة والشرف والسمعة عرض الحائط وقلت .. هي امرأة ككل النساء ولو وجدت الظروف الملائمة ... الظروف الصحية السليمة لما انزلقت ... واحببتها بصدق ... وتطور هذا الحب الى ان وصل الى درجة الهيام .. وهذه الدرجة يشتعل فيها الضوء الاحمر ... انها خطر على عقل المـــحب .

كنت اذهب اليها في كل ليلة الى الكباريه ... وانتظرها حتى تنتهي من عملها ... وعملها لا شك انك تعرفه يا سيدي القاضي .. انها توزع الابتسامات وكؤوس الوسكي والشمبانيا على رواد المحل ... تعطي للحريف الكأس ثم تجلس مع الحريف وتداعبه ثم تتركه وتذهب الى غيره وهكـــذا ... وانا اتفرج على كل ما تقوم به حبيبتي ولا اتكلـــم ... هذا شرط اشترطته علي .... قالت لي : يجب ان لا تتدخل في عملي ... ارض بحب كما هو والا الفراق خير من علاقة تكون فيها انت الحاكم وأنا المحكومة ... انا لا استطيع التخلي عن عملي ... سأموت جوعا لو تخليت عنه ... وعندئذ لا تنفعني انت ... حبك لن يتحول الى خبز يطرد جوعي ... » وقبلت الشرط ... وقلت دعها تعمل الى ان يتحسن وضعي المالي ... وكنت كتلة من الامل تتدحرج على الأرض ... الامل في المستقبل والحياة والحب ... كنت أوهم نفسي بأني سأنقذها من وحل الكباريهات وعمل الليل ... اما هي فلقد كانت على العكس مني ... كانت تعاكسني ... وتصدني .. انها تقابل طاعتي بالرفض وتضحيتي بالخيانـــــة ... والكرم بالابتزاز الرخيص ... انها قطة شرسة ...

وذات مساء ذهبت كعادتي الى الكابريه الذي كانت تعمل فيه .. ولكنني لم أجدها في الصالة ... بحثت عنها حتى تحت الموائد فلم اجدها ... سألت عنها احدى زميلاتها المقربات فقالت لي انها في غرفتها في الطابق العلوي ... صعدت اليها . فتحت الباب ... وبمجرد ان فتحت الباب احسست بان قلبي خرج من فمي وسقط على الأرض ... احسست بأن ظلاما كثيفا غطى الدنيا كلها ... فركت عيني ... لم أصدق ما رأيت ... لقد وجدتها نائمة مع احد الغرباء ... هي عارية .. وهو عار ... جسده فوق جسدها ... وبلا كلام أو سلام تقدمت نحو الرجل فخاف وفرّ هاربا بلا ملابس ... خرج عاريا ... وتقدمت نحوها .. قلت لها « حالا نكتب عقد القران وتودعين هذا العمل ... » قالت عزيزي الابله يظهر انك نسيت الشرط ... واطلقت ضحكة ساخرة ... احسست مرة اخري بأن قلبي خرج ثانية من فمي وسقط علـــى الأرض ... الأرض تدور ... سقف البيت يرتعش ... يدي ترتعش ... انحنيت عليها ... قبضت على رقبتها ... قبلات الغريب مازالت آثارها على الرقبة .. ضغطت على الرقبة ... احست بصعوبة في التنفس ... خرج لسانها من فمها ... احس بلذة كبيرة ... بنشوة عارمة .... توقفت عن التنفس ... قلبها اضرب عن

الدق ... عبثت بثديها ... قبلتها على صدرها ... خرجت ... غادرت الكباريه ... وبعد ايام تعرفت على واحدة اخرى ... غانية ثانية ... تعمل في كباريه ... استدعيتها الى بيتي ... وبعد ان مارست معها الجنس اكثر من مرة اخرجت لها لسانها منفها وحملتها على ظهري ورميت بها في البحر الذي لم يكن يبعد عن بيتي الا بمسافة قصيرة .

ونفس العملية اعدتها مع ثالثة ... ورابعة ... وخامسة ... الى ان عثرت علي الشرطة ..

ان هذا النوع من النساء لا يستحق الحيلة وانا مستعد لقتلهن جميعا ... انهن قذرات بما في هذه الكلمة من معني ومستعد لان قتل اكثر ... اكثر ... ولست نادما إن شنقت أو سجنت مدى الحياة أو اودعت مستشفى الأمراض العقلية ولكنني نادم لانني لم اتمكن من قتلهن جميعا .. انني نادم من اجل هذا فقط وليس من اجل أي شيء آخر .

الرجل الذي اصبح دجاجة

اليوم 12 ماي 1881 ،، فهل هو يوم جديد ؟ ، لا أظن ،،، لا فرق بينه وبين الامس ،، بالامس كان الجوع ، والفقر واليـــأس ، واليوم أيضا ها أنا أغادر فراشي ومعي ما نمت بــــه ،،،، معي الحزن والضجر ، والاحساس باللامعني ،،،

ها هي زوجتي تستيقظ لتسألني عن حالي ، المسكينة تحسب ان احوالي تتغير انهالا تعلم انني اتعس رجل في العالم ،، انني تعس يا سيدتي ، منذ ان ولدت وانا على هذا الحال حتى صرت صديقا للحزن والتعاسة واليأس .

أحب ان نأكل يا سيدتي ،،

أحب ان نلبس يا سيدتي

أحب ان نسعد يا سيدتي

ولكن من أين المال ؟ ،،، أنا بطال يا سيدتي انا رجل فقير ،، ولدت وانا جائع ، ويبدو انني سأموت وأنا جائع ،، اصبر يا ابراهيم ،، عبارة تأتيني في اليوم الف مرة ،،، من

زوجتي الجائعة ،،، ومن جيراني الجائعين ،، ومن اصدقائي الجائعين ، كلنا هنا في هذا الحي الشعبي من أحياء العاصمة جوعى ،،، اصبر يا إبراهيم ،، عبارة صارت تضحكني ،، أنا جائع والجوعى من حولي يوصوني بالصبر ، انها العملة الوحيدة التي نتبادلها بيننا نحن الفقراء الجوعـــى .

لماذا لا نذهب الى الباي ، ونقول له نحن جوعى يا سيدنــا ؟ فاعطنا خبزا وزيتا وزيتونا وعملا ؟

لماذا لا نذهب اليه ونحكي له عن احزاننا ومأساتنا وجوعنا التاريخي الرهيب ،، ونقول له انت يا سيدنا ورثت الحكم والقصر والكرسي ونحن ورثنا الجوع والفقر ؟

ولكن من سيعطينا عنوان الباي ؟ وقصر الباي ،، ومن سيساعدنا على الوصول اليه ؟ انه بعيد ،، بعيد جدا ؟ يخيل الي احيانا ان قصر الباي يوجد في كوكب آخر .

كل من سألناهم عن عنوان الباي ، قالوا انهم يجهلوه ،، بل هناك منهم من انكروا وجود هذا الباي أصلا ،، ومنهم من زعموا انه ليس بشرا مثلنا فهو لن يفهم لغتنا ولن يفقه حديثنا

وسيأمر بان يصنعوا منا مأدبة للاسود التي تحميه ،،

فكرة الذهاب الى الباي تخامرني كل صباح ، ولكنني استبعدها حالما اخرج من البيت لماذا ؟ ربما لانني أصبحت مقتنعا بان الباي غير موجود أصلا ،، وحتى اذا كان موجودا فهو في مكان بعيد والوصول اليه يتطلب قوة سرقها منا الجوع ،، لقد هدّنا الجوع فتحولنا الى هياكل بشرية من يرانا يحسب اننا هربنا من القبور .

ها أنا أغادر البيت ،، وها هي زوجتي تلاحقني بطلباتها التي تتكرر كل يوم ولا تتحقق ابدا .

ان زوجتي لا تطلب مني ان آتيها بالقمر والنجوم انها تطلب قليلا من الخبز والزيتون فقط ولكن ما أعجزني من رجل ؟ ،، أتمنى ان يأتي الباي الى بيتي ويرى كيف ان رجولتي تهان كل صباح ،، كيف تعذبني زوجتي بطلباتها الصغيرة ،، هل الباي متزوج وله زوجة تطلب منه ان يأتيها بالخبز والزيتون ،، لا ادري ،، انني أجهل كل شيء عن هذا الباي ،، بل أنا لم أره ولو مرة واحدة في حياتي ،، اصدقائي الذين ذهبوا الى الكتاتيب والجوامع قالوا لي ان الرسول على عظمته وقدره وجلاله كان يمشي في الاسواق ويختلط بالناس

ويتحدث اليهم ويتحدثون اليه فيستمع منهم .

اغادر البيت وانا بي رغبة شديدة في ان اشرب قهوة ،،، ولكن من اين لي بها ،،

عندما استقبلني الشارع احسست بحزني يشتد ،، لم أر في هذا الشارع شيئا غير عادي ،،،، مع ذلك اعتراني شبه غثيان ،، ذهبت الى الحاج عمران ، وجدته مازال يفتح باب دكانه الصغير ،، انه دكان صغير ولكنك تجد فيه الخبز الى جانب الفحم والقاز حتو الزيت ،،

حييت الحاج عمران بتحية الصباح ، فحياني ثم قال لي · ما لك يا ابراهيم ،، ما هذا الوجه المربد ، اتحس بالام ،،

قلت : ومتى لم أحس بهذه االام يا عم الحاج ،،، انها تلازمني منذ زمن ماعدت اذكره ،،، اما اليوم فانني احس بالامي تشتد ،، انني أرىهفي الافق خطرا لا أستطيع ان احدده ،

قال « سبق الخير » يا ولدي واصبر ولسوف يعطيك ربك فترضى

قلت   ها انا وصية و الصبر بدأت تأتيني منذ الصباح

جلست حذو   الحاج عمران ،، جاءني بقهوة فشربتها وكأنني أشرب ماء زمزم ،، وأخذ يحدثني عن كساد التجارة وقلة اقبال الناس على الشراء وكثرة البيع بالمؤجل ، وقال لي ان الحال اذا استمر فان رأسماله الصغير سيضيع منه ،،

عندما استمعت الى كلمات الحاج عمران تمنيت لو ان امي لم تلدني ،،   ان كلماته كما لو أنها موجهة لي فكانت كالسياط ألهبت جسدي ، فقلت له كمن يعتذر   سأدفع لك ما اخذته منك ،، لا تخشى على مالك ، فان الفقراء لا يسرقون

وأخذ الحاج عمران يخفف عليّ بكلماته وقال لي بلهجة لمست فيها بعض الحبّ :

« لم اقصد ان اذكرك بما اخذته مني ، ولم اقصد احدا بعينه من سكان الحي ، وانما انا وصفت لك الوضع ،

قلت   انه وضع عام يا عم عمران ، يبدو ان البلاد هربت منها البركة ،،

قال   ما هومات أعظم يا ولدي ،،، اننا في حاجة الى

قلت . وماذا تقصد بما هوءات أعظم ،،

قال : أقصد ان مصيبة ستحل بالبلاد والعباد

وكدت افقد وعيي ،، ماذا يقول الحاج ،، انه يهذي بدون شك والا فهل هناك مصيبة أكثر من الجوع والعراء والفقر ؟

بدأ الصبيان يتوافدون على دكان الحاج عمران ،،، هذا يطلب (عشورية زيت) ،، وذاك يرغب في (رطيل فحم) ،، وثالث يريد (مائة غرام طماطم) ،، فانشغل عني الحاج .

عدت الى الشارع فاذا بالجوع أصبح ثقيلا لا يطاق ،، رفعت رأسي الى السماء فرأيت غمامة سوداء تغطيها ،، احسست برغبة في البكاء ،،، تمنيت لو أجد الشجاعة على الصراخ ،، على العويل ،،، على النحيب ،، تمنيت لو ان كل هؤلاء الذين في الشارع يجتمعون حولي ونشترك جميعا في نوبة طويلة من البكاء ،، والصراخ

وفجأة قررت ان اصرخ ،، انه قرار جنوني لا شك في ذلك ،،، ولكني ما استطعت اليه دفعا وصرخت مرة ،،، ومرات

ثم استندت الى حائط قديم ،، فاجتمع الناس حولي ،،، ولما رأيتهم أخذت أبكي ،،، وأبكي ،، واذا بالجميع يبكون ،

انه كبكاء الارامل والثكالي ،، هل رأيتم افظع من مجموعة رجال يبكون ،، انها ثورة الفظاعة ،،، تمنيت في هذه اللحظة ان يأتي الباى معنا ،، وان يأتي كل من معه في القصر ويبكون جميعامثلما نبكي ،، ولكنني تذكرت ان الباي لا يعرف البكاء ،، ان الفقراء وحدهم يعرفون الانين .

ورغم انني توقفت عن البكاء فان كل من حولي لم يتوقفـــوا ،، ولما رأيتهم على هذه الحال لعنت الدموع وحاولت ان أفر منهم ،، وإذا بالجميع يلاحقونني ،، تقدمت ،، فتقدموا ،، مشيت فمشوا ،، توقفت فتوقفوا ،

التفت نحوهم وقلت اليهم بغضب :

كفوا الآن عن البكاء ، وتعالوا نذهب الى الباي ونقول له نحن جوعى ،، نحن قتلنا الحزن والهم والأسي ،

واذا بكل الذين كانوا يبكون صاروا يضحكون

لم أفهم .

ظلوا يضحكون حتي أصبح لضحكاتهم دويا كدويّ المطارق ،،،

الضحكات تتواصل ،، ان الدويّ يتصاعد ويزداد قوة وشراسة .

انني أفقد الوعي .

وكلما أتذكره الآن انني سقطت فوق الأرض .

قبل أن اسقط فوق الأرض خيل الي ان الباي جاء على حين غفلة ورأى القوم يضحكون فأمر بأن يتوقفوا فورا عن الضحك ،،، ولما لم يستجيبوا وواصلوا ضحكهم بعنف أشد انهارت اعصابه وامر بأن ينقلوا الى المحتشد ،،،

خيل الي ذلك ولكنني اطردت بسرعة من رأسي هذا التخيل وحاولت ان افكر بصورة منطقية ،، ولكن الضحكات التي كانت كالمطارق تنزل فوق رأسي الصغير حالت دون ان أفكر أو حتى ان احتفظ بوعيي فلقد سقطت على الأرض كالدجاجة المذبوحة ،، ولماذا أقول كالدجاجة ؟ لقد كنت دجاجة فعلا .

انا في الليـــل ... : انـــا

أنا في النهار لست حرا ... أنا في النهار شبيه بفيتنـــــام ،،، مستعمرة كبيرة ،،، أنا في النهار ملك للاخريـن ،، ملك للشوارع والمكتبات وحافلات النقل ،،، ملك للظروف ،،، وللنفاق والمجاملة ،،، أنا في النهار لست أنا ،، أنا هاملت شكسبير ،،، و غريب كامو وسيريف الاغريق ،،، أنا نسخة بالكربون من الاخرين

ماكياج وجهي يصنعه الناس وابتساماتي ينتجها ويستهلكها من اعرفهم ،، أناشيء مؤمم ،،، انني كالمؤسسات والمعامل في بلاد اشتراكية .

الناس ،،، المجتمع ،،، الظروف الزمان ،،، كلها أشياء تحدد ملامحي وموقعي ،،، انا في النهار اردد قول كامل الشناوي « تمهلي ايتها الايام ،،، لا تدفعيني في طريقك بهذه السرعة المجنونة ،، انني لا أجري ولا أمشي ولكي أحفر بخطواتي القبر الذي سيضمني ،،، بعدما اتحول الى رفات .

انني لا أكره الموت ،، ولكني أكره أن أتولى قتل نفسي

وأضع جثماني في نعش احمله على كتفي ،،، وأمشي وراءه .

ما أقسى ان أكون الميت والجنازة والخطوة ،،، والطريق .

ولكن الايام لا تسمع ولا ترى أن اصنام بابل وأشور ومصر القديمة كانت تسمع أما الأيام فهي خرساء صماء طرشاء ،،، ما أفظع الأيام .

اما في الليل فأنا إنسان آخر انسان حر ،، لا يري ما يراه بالنهار ،،، ولا يسمع ما يسمعه بالنهار أنا في الليل كل شيء ولا شيء ،،، مسافر بلا حقيبة طائر بلا أجنحة ملاح بدون مركب ،،، قطار يجري ولا يعرف محطات يقف عندهـــــا ،،، عصفور يتنقل بين شجرة وأخرى ،، نحلة تدور في حديقة كبيرة وتتبخّر زهورها .

أنا في الليل أدور حول نفسي وحول العالم وأعيش في عوالم أخرى واسعة جدا ،،، وليس في هذه العوالم ساعـــــات ،،، ان جميع ساعاتها بلا عقارب .

وفي الليل التقي مع من أشاء وأعارض من أشاء وانام مع من أشاء ،،، كل شيء يسألني هل أشاء أو لا أشاء ويعطيني حق قول كلمة (لا) .

كل ليلة اغني مع أم كلثوم اغنية - هذه ليلتي - وأسهر مع عيون الجيكوندا وأضحك مع جحا وشارلي شابلن ،،، وأعيش مع سقراط وارسطوا والغزالي ،،، وديكارت وتولوستوي وغوركي وسارتر وهتلر ونابليون وبيرل باك ،،، اصناف من البشر يجتمعون كل ليلة في بيتي ،،، كل ليلة يدخل الى بيتي ألوف الفلاسفة ألوف الفنانين ، ألوف العلماء ،، انهم يأتون من الشرق والغرب ويستعملون أكثر من لغة ويعبرون بأكثر من وسيلة يعبرون بالريشة والقلم والقيثاة والعود ،، ومع ذلك فانهم يجتمعون حول طاولة واحدة وتحت سقف واحد ،،، وأنا اقف في وسط البيت أرى بألف عين وأسمع بألف اذن ولساني مقطوع وعقلي يدور كالإسطوانة ويسجل كآلة تسجيل جيّدة ورأسي يستقبل بلا كلل وملل وقلبي يرقص ويضخ ،،، ويعمل بكل اخلاص واعصابي في حالة حضور ،،، كل شيء فيّ يقظ كحارس امين لاحد البنوك .

أنا في الليل أعيش مع وديع الصافي - تحت نجوم الليل - مع فريد الاطرش في - نجوم الليل - ومع شهريار ، شهريار مات وانا اخذت مكانه أما شهرزاد فمازالت موجودة ،،، وقصصها لم تنته ،، انها تتجدد مع تجدد كل ليلة .

أنا في الليل حر ،، أنا في الليل مسافر بلاحقيبة وحقيبة بلا مسافر ،، وانا في الليل ببساطة : (أنا)

انني أقتل الليل لكي لا يقتلني بقنابله الحقيقة ...

ان الليل له قنابله ومدافعه ودبابته وجيوشه ،،، ان نابليون قديم ،، ونابليون الذي عرفته فرنسا ثم عرفه العالم اقتبس صورته من صورة الليل .

لقد كان نابليون يحب الليل ،، وكان يكتب رسائله لجوزفين ولغيرها من حبيباته في الليل ،، كان في النهار يحارب ،،، وفي الليل يكتب لجوزفين كلمات الحب ..

نابليون كان شخصية غريبة ،،، كان لا يفرق بين الحب والحرب ،، لا فرق عنده بين روسيا التي يريد ان يغزوها ويستعمرها وبين جوزفين التي كان يريد ان يستبعد جسدهـــا ،،،

الحب عنده الحرب ،، والحرب عنده الحب .

ولأني لست ـ نابليون ـ فانني اقضي الليل مع الكتب والافلام والمسرحيات ،،، لاقاوم نابيلون الخالد ،،، الليل ـ ،،

لأتعايش معه سلميا ،، ولكي لا يطلق عليّ قنابله ،،

ومع ذلك فهو يطلق علي قنابله المسيلة للدموع ،،، من خلال خبز الروح الكتب ،،، الاقلام ،،، المسرحيات ...

ان خبز الروح كثيرا ما أسال دموعي ،،، دموع الفرح أو دموع الحزن ،،، وكثيرا ما أبكاني بكاء الاطفال ،،، وكثيرا ما جعلني اضحك كالمجانين

رجـــــل بلا عمـــــل

نهض كعادته في الصباح الباكر ... خرج من البيت الى الشارع .. رفع وجهه نحو السماء ... تمتم بكلمات شبيهة بالدعاء ... انه يفعل ذلك كل صباح ومنذ سنوات بلا ملل ...

كل شيء يتكرر في حياته .. ان ايامه كأنها يوم واحد .

لم يأكل شيئا .. ولن يأكل طوال النهار .

اشترى علبة سقائر رديئة جدا ... وواصل طريقه .. انه يمشي بطريقة او توماتيكية ... لا ينظر الى شيء .. ولا يفكر في شيء ... ولا يشغل باله سوى هذا الفراغ الذي يملأ حياتــه .. انه انسان مهمته في هذا الوجود ان يدخن ... وان يقترض ما يمكنه من شراء المزيد من علب السقائر الرديئة .

بعد وقت معين وكل صباح يصل الى المكتب الذي يقصده يوميا ومنذ سنوات .. يقف في طابورطويل .. ينتظر ... يأكله الحزن .. تأكله السقائر .. .. ثم يصل دوره .

يجد نفسه امام موظف لايملك الا بضع كلمات باردة لا

حرارة فيها ..

يقول له هذا الموظف ببرودة : الى الآن لم نجد لك العمل المناسب ... عد غدا أو بعد غد .

يخرج من هذا المكتب الذي صار جزءا من حياته ... يريد ان يصرخ .. ان يصيح ان يلعن هذه الدنيا ... ان يقول اشياء كثيرة .. ولكنه لا يستطيع .

انه عاجز تماما .. ان قدراته صارت محدودة ... حتى قدرته على الصراخ فقدها منذ زمن ليس بالقصير ...ان شبابه اصبح يشبه شيخوخة الفقراء ... انه اسم بلا مسمى

يغادر المكان ويضيع في المدينة .. يذهب الى حيث لا يدري .. يتيه .. يرمي بنفسه وسط الزحام ... يصبح بلا رأس .. بلا وجود ... انه كتلة من الجوع ... من الحزن ... كمن الشقاء تنفث دخانا ..

في المساء يعود متعبا الى البيت ... لا يحمل معه شيئا سوى قلبه المفجوع وبقية باقية من سقائر ه الرديئة يدخنها بلا لذة ثم ينام لينهض في الصباح الموالي ليقوم بنفس تجربة الانتظار .

حكاية ليست قديمة

لم تكن قوسا ، ولكنها كانت تشبهه الى حد بعيد ، ولم تكن هيكلا عظيما وان كانت صورة دقيقة منه .

انها عجوز تمشي والحزن يمشي معها ، تتحرك والبؤس يتحرك معها . بأيجاز كانت كتلة عظمية من الشقاء الانساني في ادق صوره وابلغه وما كانت تتصنع البؤس أو الحزن فكل ما فيها ينبئ بانها لم تاكل في حياتها الا الجاف واليابس ، ولم تشرب الا مياه انهار الفقر والمذلة والاحتياج ، ولم تكابد غير الشوق الى قطعة خبز ، وشيء من الزيت والزيتون وكاس من الشاي ،، تلك اشواقها التي ظلت ترحل معها طيلة الرحلة ،، وها ان الرحلة قد اشرفت على النهاية والاشواق مازالت كما بدات حارة وقوية وملحة فكادت تنقلب الى اشجان ولعلها صارت كذلك فلم تبق في العمر الا بقية باقيـــة ،، وكيف للاشواق التي لم تتحقق عندما كان العمر فسيحا مديدا وطويلا ان تتحقق الان وقد اوشكت النهاية على النهاية .

رأيت هذه العجوز في القطار ،، وكانت تنتقل من مسافر الى مسافر ،، كانت تبسط يدها وبظهرها انحناءة تدل على غايتها ،، ما كانت تتكلم او تتأوه او تدعو الناس الى الاحسـان ،، ولم تكن في حاجة لذلك فانحناءتها تغنيها عن الصراخ ،، ان في انحاءتها بعض الخضوع ،، وبعض المذلــة .

وعندما يئست من احسان (المحسنين) تقدمت نحو باب عربة القطار وجلست امامه وانطلقت ببصرها نحو الفضاء ،، وتضخم بعد حين الاحساس بالمذلة داخلها فتكورت حتي صارلها شكل الكتلة .

وفجأة غادرت امرأة فرنسية مقعدها وتقدمت منها بعد ان اخرجت من حقيبة صغيرة كانت تحملها بعض القطع المعدنية ووضعتها امام العجوز التي مدت يدها نحوها وجمعتها ثم رفعت بصرها الى المرأة بعينين ذابلتين فيهما من الخضوع اكثر من الشكر .

وما ان عادت المرأة الفرنسية حتي اخذ بقية الركاب في التسابق نحو العجوز ،، هذا يسليها ،، وذاك يساعدها على الوقوف وآخر يدعوها الى الجلوس والكل يجمعون ما تناثر

في جيوبهم من نقود ليمنحوها للعجوز البائسة .

رضيت العجوز قليلا ،، واستمر القطار في رحلته اليوميـــة .

ســهـــــــــرة الخـــــــــوف

المذيع : سيداتي سادتي يسعدنا ان نستضيف لكم في هذه الليلة الاستاذ « احدهم » الذي لا شك انكم سمعتم به ،، وتعرفتم عليه ،،

أحدهم : ما أنا الا واحد من عامة الناس

المذيع . هذا من تواضعكم

احدهم شكرا

المذيع في البداية نطلب من سيادتك ان تحدد لنا عناوين الاغاني التي ترشحها لهذه السهرة ،، اذ لا بدّ من تلوين سهراتنا الاذاعية بالغناء والطرب

أحدهم احب ان استمع الى ثلاث اغاني

المذيع ما هي ؟

احدهم الأولى « خايف أقول اللي في قلبي » لعبد الوهاب ،، والثانية « انا خايفة » لمطربة لم اعد اذكر

اسمهـــا ، والثالثة وهي في الحقيقة مقطع يقول « وامشيت وانا خايــف » من اغنية لعبد الحليم ،

المذيع لماذا ركزت اختيارك على اغاني الخوف

أحدهم · الوقت ليل ،، وانا اخاف الليل ،

المذيع : أنت رجل ومع ذلك تخاف الليل ،،، هل هذا معقول ؟

أحدهم : الرجال يصبحون اطفالا في الليل ،

المذيع · لم افهم

احدهم عندما ياتي الليل ، الجميع يذهبون الى الفراش ويحتمون بالمخدات ، البعض الآخر بمخدة الصوف ،، وبمخدة القش

المذيع ومارأيك في الخوف بصورة عامة ؟

احدهم في الواقع ،، بصراحة ،، الخوف ،، الخوف ،، لااخفي عليك ،، بصراحة ،،

المذيع · شكرا ،، شكرا ،، على هذا الرأي الصريح في

احدهم · لاشكر على واجب

المذيع وهل هناك ما يخيفك باستثناء الليل ؟

احدهم · في الواقع ،، بصراحة يخيفني ،، وحتي لا أطيل عليكم دعوني أقول ان الخوف ،، وباختصار شديد ،،

المذيع · فهمت ،، وشكرا على هذا الجواب المختصر والمفيد في نفس الوقت ،، ولكن لم تذكر لنا كيف تقاوم الخوف في الليل ؟

احدهم اذهب الى فراشي واتخيل انني فوق اسد فانسى لبرهة الخوف ثم اتذكر انني فوق اسد فيشتد خوفي ويعظم هلعي فانزل الى الأرض وأنام فوقها

المذيع · طريقة ذكية ولا شك ، والان نستمع الى الاغنية الأولى في سهرتنا اغنية « خايف أقول اللي في قلبي »

الطفل و حرف الحاء

عم الضجيج والعجيج القسم ،، وتسابق الاطفال في الهرج والمرج ،،، ولكن كل ذلك لم يستمر طويلا ،، فلقد حضر مدير المدرسة ، وبحضوره انقلبت الضجة الى هدوء ،، والحركة الى سكون ،

سأل المدير وهو شبه غاضب المعلم ما هذا الذي يحدث في القسم ،، ولماذا هذه الفوضى بين تلامذتك ؟

قال المعلم وهو شبه مرتبك القصة يا سيدي وما فيها

انني شرعت في تعليمهم حروف الهجاء وبدأت بحرف االلف وهو كما تعرف حضرتك كان دائما الأول في الترتيب منذ ان عرف العرب الكتابة ولكنهم ابوا ورفضوا ،

قال المدير مستغربا وقد ازداد غضبا رفضوا ؟

قال المعلم : وقد ازداد ارتباكه : نعم رفضوا واصروا على رأيهم .

قال المدير · وما هو هذا الرأي ؟

قال المعلم يرون ان أبدأ بحرف الحاء قبل سواه

قال التلامذة بصوت واحد نعم نريد ان نتعلم كتابة حرف الحاء قبل الالف والباء والتاء ،، ليعلمنا كتابة هذا الحرف في البداية ثم له ان يعلمنا بعد ذلك ما شاء من الحروف .

قال المعلم اسمعت ياسيدي ،،، انهم عفاريت ،

وتوجه المدير الى التلامذة بالسؤال ولماذا تريدون البدء بحرف الحاء ؟

قال التلامذة لانه حرف تبدأ به كل هذه الكلمات · حريـــة ، حب ، حنان ، حق ، حياة ، حيوية ،

وقاطعهم المدير وحرب أيضا ،، لماذا نسيتم هذه الكلمة انها تبدأ هي الأخرى بالحاء .

قال التلامذة نحن لا نعرف الحرب ، انها غير موجودة في لغتنا ،، ولا نعرف سوى الكلمات التي ذكرنا ،

قال المدير · انها كلمات جميلة ،، واجمل منها فكرتكم الطريفة التي تدل على فطنتكم وذكائكم ، انكم لعفاريت فعلا .

قال التلامذة   لا حاجة لنا بالاطراء ، نريد الموافقة على ما نطلب .

قال المدير   ساستشير رؤسائي قبل الموافقة أو الرفض

قال التلامذة   لا خاب من استشار

قال المدير بتعجب   وتعرفون هذا المثل ايضا ،،، هل انتم اطفال ام ابالسة ؟

قال التلامذة   نعم نحن اطفال ،، ولذلك نحن نعشق حرف الحاء ،،،

وخرج المدير مسرعا من القسم ،، وعاد المعلم الى كرسيه ،،، وتبادل الاطفال النظرات والضحكات ، فيما كان احد الاطفال يكتب في كراسه   حرف الحاء اجمل الحروف .

الطفـــــل و الافعـــــال

احمد طفل جميل ،،، ولكن خطه اجمل ..

انه يكتب في كراريسه بخط جميل ...

قال له ذلك المعلم

وأنبأت بذلك الاعداد التي كانت يعود بها الى بيته وهو سعيد ،

ولكن احمد لا يحب اسمه ... ولا يحب جميع الاسماء

اذا طلب منه المعلم ان يكتب جملة اسمية كتب جملة فعلية

واذا قال له ضع فوق السبورة اسم انسان أو حيوان وضع اسم فاعل

نبهه المعلم الى هذا الخطأ ولكنه لم ينتبه .. واصر على الخطأ .

انه يصر على ان تكون الافعال هي الدالة على كل شـــيء ... فهو مثلا يقول ان اسمه احمد ينبغي ان يتغير فيصبح الخطاط لانه يحسن الخط .. ويكتب بحروف جميلة .

ذات مرة طلب منه المعلم ان يكتب كلمة الاسد فكتب الشجاع ... وفي مرة اخرى امره بأن يكتب اسم الوطن فكتب اللاّمباع

وقال له المعلم · ولكن يا بني اسم وطنك ليس اللامباع ، وهذه صفة قد تنطبق على اشياء أخرى كثيرة

فرد احمد بثقة في النفس شديدة

قد يبيع الانسان أشياء عزيزة عليه في حالات الاضطــرار ... ولكن الشيء الوحيد الذي لا يجوز له ان يبيعه هو الوطن ، لانه ان فعل يكون قد باع حريته ... وكرامته ... وشرفه .

نظر اليه المعلم باعجاب ثم ابتسم وسأله وما هو اسم المواطن اذن في قاموسك

رد احمد بدون تفكير ·

المخلص .. المخلص يا سيدي

فقال المعلم . ولكن حتى من يخلص لزوجته نقول عنه مخلص

أجاب احمد : لا يا سيدي الامر ليس على هذا النحو .. فمن لا يخلص لوطنه لا يستطيع ان يخلص لنفسه أو لزوجتــه .. قد يجوز العكس . أما ان لا يخلص الانسان لوطنه ثم يخلص لزوجته فهذا ما لا يمكن ان يكون .

قال المعلم : احسنت .. احسنت يا احمد .. انت فيلسوف صغير وانا لا اعلم .

قال احمد مصححا ٠

انا لست احمد أولا ..

ولست فيلسوفا ثانيا .

انا الخطاط صاحب القاموس الجديد

واشرق وجه المعلم بابتسامة واحتضن احمد وقبله .

الطفل و السعادة

كان الاب يبدو في هذا اليوم سعيدا الى ابعد الحدود ،،، انه يغني ويبتسم ،،، بل يرقص ويقفز كالاطفال بالضبط ...

اما اذا اردت ان تعرف سبب هذه السعادة فانه على استعداد لان يعلن لك عن ذلك ،، انه لا يعتبر سعادته سرا من الاسرار الدولية التي ينبغي ان تحفظ ،،، اكثر من ذلك يحس برغبة قاتلة وجارفة في البوح بسبب سعادته ،،

وقد حاول ان يكبت هذه الرغبة ،،، ولكنه فشل ،،، وعندما عجز أوقف أول قادم في اتجاهه وقال له : انا سعيد يا صاحبي ،،، اما لماذا انا كذلك فان هذه التفاحة التى بيدي هي مصدر سعادتي ،،

ضحك الرجل الغريب عندما سمع ذلك ومضى في طريقه وهو يقول « الله يحبس علينا العقل والدين » لقد ظنه احد المعتوهين هرب من المستشفى .

وواصل الاب سيره ،،، احس بشيء من الراحة بعد ان

افضى لذلك الغريب بسعادته ،،، انه مازال يغني ويرقص وتمنى في لحظة ما ان يقبل الناس ،،، ان يصعد فوق بناية افريكا ويقول للناس بملء صوته : ايها الناس انا اليوم سعيـــد ،،، وسبب سعادتي تفاحة ،،، تفاحة فقط ،،، لقد اشتريت تفاحة فاصبحت سعيدا ،،،

وفكر ان يصعد الى افريكا ولكنه خاف ،،، فاطرد الفكرة واتجه نحو بيته بعد ان اخرج التفاحة من السلة وداعبها قليلا ثم مسحها بمنديله واعادها الى مكانها .

وصل الى البيت ،،، وخرجت الزوجة كئيبة ،،، حزينة ،،، فبادرها قائلا · تخلصي ايتها المرأة من حزنك وكآبتك ،، فقد جئت اليوم بما يسعدك ،،،

واخرج الاب التفاحة فلما رأتها الزوجة هجمت عليه وقبلته وهي في قمة الانشراح لقد كانت التفاحة كالعصا السحريـــة ،،، بمجرد ان رأتها المرأة احست بنهر من السعادة يجري بداخلها .

ونادى الاب على ابنه ،،، فجاء مسرعا ،، انه طفل جميل وذكي وتسلم التفاحة واخذ يداعبها برفق ويحنو عليها ثم

التفت لابيه وقال بدهشة انظر ،،، انظر ،،، يا أبي لقد احمرت التفاحة يا أبي ،،، ما الحكاية يا أبي ،

فقال الاب لطفله لقد احمرت خجلا منك يا ولدي فكلها ولا تخش شيئا ،،،

الطفـــــل و التفاحــــة

قالت التفاحة للطفل :

انت تحبني ، ولكن حبك سيدمرني ،،، سيعتصرني ، وسيعجل بفنائي ،

قال الطفل للتفاحة ·

انتظرت مجيئك طويلا ، فلماذا تاخرت ؟

تأخرت لانني كنت حريصة عليك

سألها الطفل باستغراب كيف ؟

قالت نعم كنت حريصة عليك لانني لا أحب أن التقي بك الا وأنا ناضجة مكتملة ،،، وشهية ،

قال · ولكن مع ذلك فانت صفراء .

قالت وما اعتراضك على اللون الاصفر ؟

قال انه لون المرض والموت

قالت : ولون الذهب ايضا لا تنس ذلك

قال · صحيح

واخذ الطفل التفاحة وراح يعبث بها ثم يضغط عليها كأنه يريد أن يعبر لها عن حبه فاعترضت التفاحة وقالت له .

لا تكن خشنا معي ،،، ولا تضغط علي فإن التعبير عن الحب لا يكون بهذا الاسلوب

قال الطفل . ومن ادراك بأنني أريد ان أعبر لك عن حبي ؟

قالت حرارة أصابعك تكاد ان تنطق بذلك ،، ولكن حبك سيدمرني ،،، انا متأكدة من ذلك ،

قال حبي لك سيوحد بيننا ،،، سيجعل منك جزءا من جسمي ، وعقلي ، وروحي ،

قالت أنت ذكي جدا ، إنك طفل عبقري ،،

قال لولا امثالك لما أصبحت كما تقولين ،،

قالت كيف ؟

قال : ان من لا يأكل التفاح والثمار ولا يتغذي تغذية سليمة لا يصبح ذكيا

قالت . اذن ، من اجل ذلك اقبل ان تفعل بي ماشئت ،، إنني أهب نفسي لك ،،، التهمني وكن ذكيا ،،، فمن اجل حبك أقبل التضحية

فشكر الطفل التفاحة وعاد يلعب بها ،،، ويقذفها الى فوق مثلما تعوّد ان يفعل ذلك مع الكرة ولكنه لا يتركها تسقط فوق الارض فلقد كان يتلقفها بيديه ،

ثم دخل غرفته ووضع التفاحة فوق مائدة صغيرة واخذ ينظر اليها فيخيل اليه انها تحولت الى كومة كبيرة من البرتقال والمشمش و التوت وكل الثمار الاخرى التي لا تدخل البيت ،،

واخذت الكومة تكبر ،، ثم تكبر ،، الى أن غطت مساحة الغرفة ،،، فقام الطفل واخذ كمية من الثمار وخرج بها الى الشارع ووزعها على الناس ،،، ففرحوا بها فرحا شديدا .

الطفــــل و الحـــزن

« اذهب يا ولدي واقرأ في كتابك هذا الذي اشتريناه امس لعله يسليك ويرفه عنك .... ودعني استريح قليلا »

قال الاب ذلك لابنه الوحيد وهو متبرم ... مهموم ... حزيـــن ... تكاد الدموع تنهمر من عينيه

ولم يفهم الابن لهذا الحزن الدّامي سببا .

وكان يتمنى دائما لو انه يستطيع ان يطرد الحزن ... والقلق ... من نفس ابيه انه يراه في كل يوم يضع خده على يده ... ويدخن السيقارة تلو السيقارة ... وهو صامت لا يتكلم ... وجامد لا يتحرك ... يستغرقه الحزن .

كان يود لو ان هذا الاب الحزين ينسى ولو لساعة واحدة في اليوم همومه .. فيحنو عليه قليلا .

يلعب معه ....

يلاطفه ....

يحكي له حكايات جميلة ،،،

يتحدث اليه ،،،

أو يفتح له صدره فيحدثه عن هذا الامر الذي يحزنه ويشغل باله ...

وذات مرة تجرأ وقال له :

بابا ... انني لم اعد احتمل حزنك هذا .. لقد ضاقت بي الدنيا ... انني لا احب ان اراك على هذا الحال ... لا تشعر بي وبقلقي ..

وفوجيء الاب بهذا الموقف من ابنه فنظر اليه بشيء من المودة ، وبعينين يلمع فيهما بريق الحنان والرأفة ثم قال له

لست حزينا يا ولدي ...

فلقد خلقت هكذا ... أو ربما لم استطع ان احدد سبب قلقي وحزني ... ولكنني اعدك بأنني سأفعل المستحيل من اجل ان ابدو في عيونك الاب الذي يبتسم .. بل ويضحك دائما .

وحاول الاب ان يبتسم فكانت ابتسامة صغيرة ما كادت ترتسم فوق وجهه حتى اختفت .

فرح الابن ،،، فرح بهذه الابتسامة على صغرها .. واعتبرها بداية مشجعة .. ولكنه فهم ان في الامر سرّاً ..

ومرت الايام والاب يحتفظ بحزنه فلا يبتسم ولا يضحك ..

لقد حاول ان يفي بوعده غير انه كان يفشل في كل مرة فشلا يزيد في ضيقه وقلقه .

وفكر الابن في استنباط طرق قد تزيل حزن هذا الرجل الذي يحبّه كثيرا .

كان يروي له الطرائف التي يقرؤها في المجلات .. فلا يبتسم ..

كان يقطف له وردة في كل يوم من حديقة زميل له في المدرسة فلا يبتسم .

اقترح عليه ان يذهبا معا في نزهة فلم يتحمس .

الى ان كان ذات يوم فلقد عاد الابن ومعه خبر سار ...

لقد نجح في الباكالوريا .

وما ان سمع الاب بالخبر حتى زال عنه حزنه ... واخذ
يبتسم ...

ومنذ ذلك اليوم سكن الاب الفرح الذي لا يغيب حتى
وهو نائم

لقد كان ينام وهو يبتسم .

الطفـــل و المعلـــم

مهدي يحب مدرسته ... ويحب معلمه .

انه به يتشبه... يمشي ... ويتحدث مثله ... ويحلم بان يصبح معلما ،، بل هو من الان بدأ في تعليم أخوته الصغار ،، يجمعهم حوله في البيت ويعلمهم كيف يكتبون الحروف الهجائية .

ولكن مهدي يتمنى ان يذهب الى بيت معلمه ليراه كيف يعيش بين اهله ،، وكيف يأكل ،، وكيف يقرأ ..

ذات مرة قرر ان يتعقبه ، فيعرف عنوانه ، ثم يطرق عليه الباب ويطلب منه ان يستريح قليلا في بيته وينعم بمحادثته ويسأله عن أشياء كثيرة ويصرح له بحبه .

قرر ذلك بينه وبين نفسه وعزم على تنفيذ قراره هذا الكبير الخطير ..

خرج من المدرسة ... ووقف ينتظر .

انتظر طويلا ولكن سيده لم يغادر المدرسة .

وخشي ان يتأخر عن امه فيتعرض الى توبيخها فعاد مسرعا الى البيت وهو حزين لانه لم يتمكن من معرفة سكن معلمه

وحاول مرة ... ومرات ... ولكنه لم يفلح .... و ظلت الفكرة تلح عليه ، فلقد استبدت به فما استطاع خلاصا منها .

انه يحب ان يرى بيت معلّمه ... وعليه ان يحقق هذه الرغبة مهما كلفه الامر.

وتمنى لو ان المعلم يعرف رغبته هذه فيساعده على تحقيقها .. ولكن من اين له ان يعرف .

وكاد ان يطلب من أبيه المساعدة الا انه خاف من ان ينهاه وان يغضب عليه فيفسد عليه هذا الامر الذي يعتبره حلما جميلا من احلامه الصغيرة .

وذات عشية قرر ان لا يعود الى المدرسة قبل ان يتعقب المعلم .. وراح ينتظر امام باب المدرسة ... فمرت ساعة .. ثم ساعات ... وحل الظلام .. واغلق الحارس باب المدرسة

ولكن المعلم لم يظهر .

واضطر مهدي ان يعود الى البيت ..

عاد وهو حزين .. وحائر ...

وبخته امه توبيخا شديدا وهددته بعقاب اشد من ابيه .. ثم ذهب لينام وهو حائر ... انه لم يفهم كيف لا يعود المعلم الى بيته .

وفي الصباح ذهب الى المدرسة بنفس الحزن ... كانت عيناه حمراوين ... ووجهه منتفخا من البكاء .

قال له المعلم هل تشكو يا مهدي من شيء ؟

تردد مهدي ولكنه قرر في النهاية ان يصارح معلمـــــــه ..فضحك المعلّم طويلا .. ثم قال له : ان بيتي هو قسمي .. هنا اعمل .. وهنا أعيش ... وهنا اقرأ .. وهنا اعد لكم الدروس .. وهنا انام ... فزرني يا ابني متى شئت وستجدني هنا .

وصمت مهدي وعاد في ذلك اليوم الى بيته ليقول لابيه وامه لقد صممت على أن أكون معلما حتى بعد ان رأيت معلمي كيف يعيش .

الطفل و العصا

بسام ولد ذكي نجح في امتحان الترشح الى السنة الأولى من التعليم الثانوي .

قرأ وجد واجتهد فنجح في هذا الامتحان .. فكانت فرحته كبيرة الى حد انه لم يستطع ان يأكل .

ولما عاد الاب الى البيت وقد بلغه نجاح ابنه قال لولده :

الآن وقد نجحت في الامتحان حق علي ان اشتري لك هدية ... فاطلب ما تشاء يا بسام ولسوف احضره لك فورا

ولكن الصبي التزم الصمت فما كان يرغب في شيء .

وعاد الاب الى سؤال ابنه .

لقد نجحت يا بسام ، وخلصتني بنجاحك هذا من مشكلة كانت تملأ نفسي بهم لا يعلمه الا الله ، فقل ماذا تتمني ان

اشتري لك ... انني على استعداد لأن أتيك بما تطلب حتى وان تطلب مني ذلك ان ادفع راتبي كله ... انني سعيد بك ، وبهذا النجاح الذي حققته ...

ومرة اخرى ، لم يتكلم بسام ، ونظر الى أبيه نظرة فيها امتنان ، وفيها عتاب .

وقال الاب لابنه :

تكلم يا بسام ، وعبّر عن رغبتك ... لماذا انت ساهم ساكت ... لماذا لا تطلب مني ان اشتري لك هدية تستمتع بها في هذه العطلة الطويلة ... قل الآن في ماذا ترغب وسألبّي بلا تلكؤ ... فهذه المرة ليست كالمرات الأخرى ... انك تستحق هذه المرة أن ألبي طلبك بسرعة ... بل وبحذافيره ...

وأمام إلحاح الاب الذي كان في ذروة الانشراح والفرح لم يجد بسام بدا من الكلام ... فتلعثم وتأتأ في البداية ولكنه سرعان ما استطاع ان يعبّر عن نفسه تعبيرا سليما .

قال بسام :

سأطلب منك طلبا لن يكلفك شيئا ... فانت سوف لا

تضطر الى انفاق ولو جزء صغير من راتبك ... ولكن قبل ان أقول لك عن هذا الطلب عدني بانك ستلبيه وبانك ستنفذه ... فانا اشك في انك سوف تلتزم بما سأطلب منك .

اعتدل الرجل كانه يريد ان يفهم أكثر كلام ابنه وقال

لقد وعدتك بانني على استعداد لتلبية كل طلب تطلبه ... انك يا بسام تستحق كل خير ... فاطلب ما تشاء ، واعدك وعدا صادقا بانني سافعل ما تأمرني به .

قال الابن على الفور

لا أطلب شيئا سوى ان تخرج الآن الى الشارع وترمي بتلك العصا التي كنت تضربني بها طوال العام الدراسي لتحثني على مراجعة دروسي ... لقد ارهقتني وعقدتني وارهبتني بتلك العصا من حيث كنت تريد صلاحي واصلاحي .. ان الاحمرة وحدها هي التي تساق وتقاد بالعصى ... أما الانسان .. أما الاطفال ... فانهم لا يحتاجون الا الى التفهم ... الى الحنان ... الى الرفق ... فارفق بي يا أبي و لتكن هديتك لي الاستغناء عن العصا .

الطفل والسمكة

رشاد يحب امه مثلما يحب الحياة ..

ويحرص على راحتها حرصه على عينيه ..

ورشاد طفل جميل وذكي يذهب الى المدرسة دائما ويلعب في الشارع قليلا .. ثم يعود الى الكوخ ، ليضع رأسه على صدر امه ويستمع الى حكايتها الشيقة التي تأخذه الى عوالم الدهشة .

ذات يوم عاد الى كوخه .. وضع محفظته ، وطلب من امه ان تسمح له بالذهاب الى البحر..

قالت له البحر يا ولدي بعيد .. وانت مجهد .. البحر كبير وانت صغير ..

ولكن رشاد أصر على الذهاب . فلم تمانع الام التي لاحظت سحابة خفيفة من الحزن تغطي وجه طفلها .

وقبل ان يغادر رشاد الكوخ سألته امه :

انت حزين يا ولدي .. ما السبب ؟

قال لا أدري يا أماه ، ولانني حزين أريد ان اذهب الى البحر لاستريح ..

وغادر الطفل الكوخ وقد زاده سؤال امه حزنا على حزنه فهو لا يريد أن تحزن أمه من أجله .

وصل الى البحر .. وجلس على الرمال ثم اخذ يتأمل في البحر . إنه كبير كما كان دائما .. بل هو جبار عتيد .. ومخيف . وبعد برهة تخلص من ملابسه ونزل الى البحر .. فاستقبلته المياه والامواج بعنف فأحس بانه تخلص من حزنه

وبينما كان تحت الماء اقتربت منه سمكة واعترضت سبيله .

قالت له السمكة : هذه المنطقة منطقتي .. ماذا تفعل هنا ؟

قال البحر للجميع .. هكذا علمتني المدرسة والكتب

قالت : انت مخطئ .. البحر للاقوياء فقط ..

قال   اذن انا قوي

قالت   هات برهانك .

قال   سأصطادك واحملك الى امي التي ستسعد بك وتجعل منك وليمة كانت دائما تتمناها وتشتهيها ..

قالت   لن تستطيع

قال   لماذا ؟

قالت   لاننا نحن السمك لا ندخل الأكواخ ، اننا نفضل عليها البيوت والقصور حيث نجد اللذة حتى ونحن نموت ..

قالت السمكة ذلك ثم اختفت فخرج رشاد من البحر وعاد اليه حزنه . ومنذ ذلك اليوم أصبح يتمنى ان يكون له قصر لتستطيع أمه أكل السمك .

الطفـل والعصفـــــور

جلس الطفل الى عصفوره الجميل

كان العصفور في قفص أنيق وعنده غذاء وماء يتجددان يوميا .. فلا شيء مطلوب منه الا أن يغني .

على اهل البيت ان يوفروا له كل وسائل الراحة ... وعليه ان يغني .

ولكن العصفور منذ ان حلّ بالبيت لم يغن .. انه حزين .

كان كالشارد .. وكان كثيرا ما يصطدم بأسلاك القفص فيرتد .. ويسقط ..

إنه يريد أن يغادر القفص .. ولكنه كان دائما يخفق .. فهو صغير والأسلاك حديدية متينة وقوية .

ولأنه لا يغني جلس اليه الطفل ليسأله .. ويعاتبه ،... وينقل اليه بعض ما كان يسمعه من أهل البيت ..

قال الطفل يا عصفوري الجميل .. انت هنا في بيتك ..

نحن جميعا نحبك .. ونحرص على راحتك .. ونعمل على ان يكون جميع ما تجتاج اليه متوفرا وبكثرة ايضا .. فلماذا لا تغني .. لماذا تحرمنا من غنائك الجميل .. ولمذا تبخل علينا بصوتك الساحر ؟

اننا نحب ان نسمعك تغني .. والا لماذا جئنا بك الى البيت واشتريناك من السوق بدنانير كثيرة

وحاول العصفور التسلل من بين الاعمدة الحديدية ... ولكنها كانت متقاربة ففهم انه محبوس في حبس يستحيل الخروج منه الا بمساعدة من يتطوع بمساعدته ... ولكن من سيحسن اليه فجميع من في البيت يريدون منه ان يبقى حبيس هذا الحبس ليغني لهم .

وفكر العصفور قليلا ثم خاطب الطفل الذي كان ينظر اليه بحـــــنان

ياصغير انا لا أستطيع ان اغني الا اذا استخدمت اجنحتي .. اما اذا تعطلت فان صوتي يتعطل ايضا .. فلا اقدر على غناء فقال الطفل باستغراب

ولكن ما علاقة الصوت بالاجنحة ؟

قال العصفور وكأنه تحول الى حكيم

ان الكائنات جميعا لا تعمل الا إذا كانت على سجيتها ..
وأنا في هذا القفص لست على سجيتي .. جرّب ان تطلق
سراحي وسوف تسمع مني ما يطربك .. ويدهشك ،،
ويسحرك ..

وما إن سمع القفص ذلك حتي اهتز وارتج فقال وهو
غاضب :

لا تصدقه .. انه كاذب فيما يدعي .. لا تطلق سراحه ..
ولا تتركه يهرب فيضحك منك

انك ان فتحت له الباب سوف لا تراه .. سوف يهاجر الى
مكان بعيد فلا تسمع له غناء

انه يعمل على الايقاع بك .. فهو يطلب مساعدتك ويعدك
بالغناء الجميل ثم اذا خرج طار وغاب واختفى وحلق في
الفضاء فلا تستمتع بغنائه ولن يعود اليك .

انه صاحب حيلة فاحذره واعلم ان العصفور ما خلق الا
ليكون تحت وصايتي وحراستي وتحت بصري .. واصبر

عليّ وسترى كيف سيطاوعني وكيف سيحصع الي ثم يغني وهو بداخلي .. دعه لي وعد غدا صباحا وستجده قد عاد الى الغناء وهو صاغر .

فلما كان الغد رجع الطفل الى العصفور فوجده قد لفظ انفاسه .. فما عاد يتحرك.. وما عاد يطالب بشيء .. انه هامد جامد .

بكي الطفل .. واخذ ينظر الى عصفوره المستسلم فقال له القفص : لا تحزن .. ان العصافير حمقاء ترفض اليد التي تمتد اليها بالاحسان .. فاطلب من أبيك ان يأتينا بعصفور آخر .. لعلنا ننجح في ترويضه .. وثق اننا سننجح .. فسنعلم - باصرادنا - العصافير كيف تركع لا قفاصها ولاصحابها ولا سيادها فتغني وهي صاغرة ذليلة

وجاء الاب بعصفور آخر .. وبثالث .. وبرابع ولكن العصافير كانت دائما تفضل الموت على الغناء داخل الاقفاص .

انها ترفض ان تغني وهي ذليلة .. مهزومة .. محبوسة .

الطفـــل و الكبـــش

قال البائع للرجل ادفع وخذ الكبش أو اذهب

وقال الطفل لابيه بابا ادفع له ما طلب قبل ان يندم

وقال الاب لا تتعجل يا ولدي ،،، دعني أقلبه أولا ، ثم سأدفع

وبعد حين طلب الاب من طفله ان يصحبه الى بائع اخر وأطاع الطفل على مضض .

قال البائع الثاني · البضاعة جيدة ، والثمن معقول ، وأرجو ان لا تساومني فاثماني « مدروسة »

وقال الطفل وهو يشير الى كبش صغير · أريد هذا حـــالا ،، ولا أقبل المزيد من الانتظار

وقال الاب لطفله انه هزيل ، وثمنه مشط ، فهيا بنا نذهب الى بائع آخر

وقاد الاب طفله الذي اخذ يلتفت الى الكبش الذي أعجبه

التفاتة فيها بعض الاسف والحسرة .

قال البائع الثاني   يبدو عليك انك لا ترغب في الشراء ولذلك أرجو ان تبحث عن غيري و أما انا فوقتي لا يسمح بهذا اللغو

وقال الطفل : يا أبي ،، لماذا كل هذا التردد ؟ ادفع قبل ان تنفذ الاكباش من السوق

وقال الاب   لا تخش شيئا يا ولدي ، فالاكباش سوف لا تنفذ وسنعثر على ضالتنا قبل ان يحل العيد

وقال الطفل   ضالتنا موجودة أمامنا يا أبي فلماذا لا نأخذها ؟

وقال الاب · لا تغضب ولا تتعجل ، وسوف اشتري لك أجمل وأسمن كبش

وقال الطفل : كيف لا أتعجل يا أبي والمساء اقترب ونحن منذ الصباح نتنقل بين الباعة ولم نشتر شيئا .

وقال الاب : انتظر قليلا حتى أرى

وقال الطفل   وما سترى

وقال الاب   جيبي

وادخل الاب يده الى جيبه ثم اخرجها وهي مرتخية ،،
وامر طفله ان يتبعه

سأل الطفل بشوق   الى أين ؟

قال الاب وهو يشير بإصبعه   الى تلك المعازة

وقال الطفل   ولكنها معازة تبيع لعب   الاطفال ولا تبيع
الاكباش يا أبي

قال الاب   ساشتري لك منها كبشا أجمل من كل أكباش
اطفال الحي

وكاد الطفل ان يبكي ،، ولكنه خاف من أبيه   فحبس
دموعه .

حطاب يعثر على كنز

عبد الله العريان رجل شعبي كريم ويحب الناس ويعطف عليهم ويتعامل معهم بالحسنى ويتعاون معهم على البر والتقوى كلما سنحت له الفرصة أو طلبوا منه يد المساعدة .

ورغم ذلك فان جيرانه يتغامزون كلما جاء ذكره في مجالسهم الخاصة فهم يعتبرونه (قرنيطة) ورجلا بخيلا من الصنف الممتاز واحد أبطال الجاحظ الذين هربوا من كتاب البخلاء ، وانضموا الى قافلة الاحياء ! ،،

وكلما بلغت هذه الأحاديث اذن عبد الله العريان حاول ان يدافع عن نفسه بكل ما أوتي من بلاغة وسحر بيان ! .. فهو في الحي وبين الجيران يتمتع بلقب الخطيب ،، ولكن في كل مرة كان يفتقر الى الحجج التي تدعم أقواله التي لم تساعده رغم طلائها على نفي صفة البخل ! ،، ولذلك فانه سرعان ما يحاول تغيير موضوع الحديث ويروي لجيرانه قصة من الأقاصيص الكثيرة التي ملأت بها جدته دماغه ! وكان الجيران يستمعون الى تلك الأقاصيص أو الخرافات عن

الفتاة الصغيرة التي تزوجت أميرا أو الحطاب الذي عثر على كنز في شجرة هرمة وهم مندهشون فيتصور كل واحد منهم انه سيعثر ذات يوم على زوجة ثرية او على كنز أو على ثروة ،، ويعود الجميع الى بيوتهم بما فيهم خميس فجلة وهم سعداء بما استمعوا وبما سيتحقق لهم في مستقبل الأيام من امنيات كالتي تحققت لأبطال قصص خميس فجلة الذي لاحظ انه يستطيع ان يسحر جيرانه بما يرويه لهم من خرافاته فهي تفعل فعل السحر في النفوس وتنسيهم في انفسهم وفي الموضوع الذي بدؤوا به المجلس ،، فهم ينطلقون عادة من اتهامه بالبخل والشح ولكنه ما ان يبدأ في قص الأقاصيص حتى يصمت الجميع ! ،، وينسون اتهاماتهم له بالبخل ! ،،

ولاحظ عبد الله العريان ان جيرانه لا يعترضون على اقاصيصه بل يستمعون اليها وكانها حقائق لاتقبل النقاش! ،، وكأنها عين الصواب الذي لا يجادل ! ،، ولا يطلبون منه ان يكف عن روايتها باعتبار انه رواها لهم في مناسبـــــات سابقة ! ،، بل هم ينصتون اليها وكأنه لم يروها لهم قط ،،

وقد حدث ان زاره مرة احد جيرانه في بيته وكانت معه زوجته ،، وكان موضوع الزيارة هو هذه الأقاصيص أو

الخرافات ،، طلب منه جاره بشيء من الاستعطاف ان يروي لزوجته قصة الحطاب الذي عثر في شجرة على كنز فكان فقيرا واصبح غنيا ،، وكان جائعا فشبع ،، وكان تعيسا فأصبح سعيدا ،، طلب منه ان يروي هذه القصة الى زوجته لانه لما رواها لها لم تصدقها واتهمته بالكذب فقال لها ان جارنا عبد الله العريان هو الذي حكاها له ولكل الجيران وهو رجل شريف لا يكذب ،،

وحاول عبد الله العريان ان يعتذر ،، ولكنه امام الحاح جاره وزوجته روى القصة بأسلوبه المتقن المقنع الذي تعلمه من جدته فاعجبت بها الزوجة اعجابا شديدا وعادت الى بيتها وهي في قمة السعادة وذروة النشوة ،،

البحث عن موزع الارزاق

زوجتي لم تتحرك من أمامي ،، وأنا جالس في مكاني لا أحس الا بوجع مؤلم في أقدامي ،، وصداع ثقيل في دماغي ،، انها تنظر الي نظرة قلقة فيها بعض الجزع ،، وتنتظر مني أن أخرج من جيوبي أوراق فئة الخمسة دنانير التي ساشتري بها ما طلبته في قائمتها التاريخية ! ،، انها تريـــــد ان تطمئن ! ،،

وبعد انتظار طويل وثقيل دام ساعة أو اكثر ، وهي واقفة وكأنها تمثال ،، وأنا جالس وكأنني متسول بائس ذليل ،، صاحت زوجتي ،، نعم صاحت حتى كدت أتصور ان الجيران سيأتون الى البيت للاستفسار عن مصدر تلك الصيحة التي تشبه صيحات هتلرا امام جنوده ! ،، ولكن جيراني لم يسمعوا الصيحة لان الصيحات كثرت في هذه الأيام فأصبحت أمرا عاديا لا يثير الانتباه في حينا ،،

ماذا قالت زوجتي عندما صاحت ؟ ! ،، الحقيقة انني لم اسمع ولم افهم ،، ولذلك لم أتحرك من مكاني ،، لقد تعودت

منها هذه المواقف الدرامية ! ،،

وعندما لاحظت انني لم اتحرك ، ولم اعبأ بوقوفها ،، وباحتجاجاتها ، وبانذاراتها وصيحتها العسكرية ،، اطلقت العنان لدموعها ،، وككل زوج يحب زوجته ويهيم بها رغم كل شيء نهضت وحاولت ان امسح دموعها واذا بها تزيد في بكائها ،،

وفهمت ان المسألة اصبحت عند زوجتي مسألة حياة أو موت ! ،، ومسألة كرامة قبل كل شيء ! ،، وان سمعتها الزوجية وضعت في الميزان ! ،،

وبعد ان فشلت في تهدئتها واقناعها بان دموعها مهما سالت لن تتحول الى ذهب او فضة ،، أو الى دنانير ،، حملت نفسي على قدمي وخرجت الى الشارع وتركتها في الظلام ،، فلقد انقطع التيار الكهربائي لأنني دفعت معلوم الكهرباء بعد وقت طويل من موعد الدفع ! ،،

خرجت الى الشارع واناحزين جدا ،، وكالعادة رفعت بصري الى السماء بحثا عن موزع الأرزاق والسعادة والزوجات ،، والأقدار والحظوظ ،، ولقد نصحني الكثير من

معارفي بان أمشي في الشارع ككل الناس وراسي منخفض الى الأرض بعد ان سمعوا باالاصطدامات التي حدثت لي مع الناس ،، والدراجات ،، وحتى السيارات ،، ولكن رغم النصح فأنا مصر على رفع راسي ،، عيني دائما تنظر الى فوق ،، الى السماء تبحث مع روحي عن الله ! ،،

قد تقول ان الله موجود فينا وفي كل مكان من هذا الكون وليس ضروريا ان ابحث عنه السماء واعرض نفسي للاصطدامات التي قد تضع نهاية مفجعة لحياتي ،، ولكن عندي قناعة لا احد يستطيع ان يغيرها أو حتى يعدل فيها بان الله موجود فوق ،، في السماء ولذلك فانا دائم السباحة بعيني وروحي في الفضاء ،،

وحده في البيت !

لفترة طويلة ظل عبد الله العريان وحده في البيت ولم يكن في الحقيقة وحده تماما فلقد كان معه انفه حاضرا ومتحفزا .

وبقى قابعا باحد أركان إحدى الغرف يستنشق بسرعة وبنهم أكثر ما يمكن من الروائح التي كانت تملأ البيت ، كان كالعطشان الذي ضاع في الصحراء زمنا طويلا بلا ماء ثم عثر على غدير فأخذ يشرب منه وكأنه يشرب من بئر زمزم .

في ركن الغرفة كان جالسا وهو عبارة عن كتلة من لحم فهو لا يتحدث ولا يتكلم ولم يسأل حتي زوجته عن حالها واحوالها وعن الوضع الجديد في البيت وعن مصدر هذه الروائح التي تملأ المكان لا أحد يريده ان يقترب منه وليس محتاجا الى أحد إلا لأنفه العزيز ليستهلك كمية الروائح وحده وبلا منافسه أي كائن بشري آخر !!! وحتى القطة التي كان يمكن ان تنافسه أطردها ورمى بها من الشباك بلا وعي وهي التي عاشت معه طويلا وكانت راضية دائما بما يقدمه لها من فتات قليل .

انه الان سعيد ، سعيد جدا ، جدا ، جدا ، بهذه الروائح وحتى عقله عندما بدأ يتفلسف ويسخر من مفهومه الساذج البسيط للسعادة الغاه واعطاه إجازة ، ! وعندما عاد ورفض الاجازة واراد ان يذكره بالخطبة التي أعدها لزوجته حول فوائد الصوم المطلق بالنهار خلال رمضان والصوم النسبي في لياليه مال بظهره نحو الحائط وأغمض عيونه وحاول ان ينام فرارا من عقله المشاكس الذي حسده على المتعة التي وجدها لأول مرة في بيته ، وأمام بيته ،،

ورغم انه أعد نفسه لإغفاءة قصيرة يستلذ خلالها بما في البيت من روائح فان عقله ظل يطارده ويبعد عن عينيه النوم ، لقد تحول عقله الى ازعاج لا يقاوم ،، فاذعن له وترك انفه يستمتع وحده وأعطى الفرصة لعقله المزعج ،، !

ذكره عقله بالخطبة التي بذل في اعدادها مجهودا خارقا للعادة فلم تعجبه أقوال بعض الدراويش في الصوم ،، وقرر ان لا يستعملها لأنها قد لا تقنع زوجته وتذكر بعض أقوال الأطباء في الموضوع الذين ينصحون بالصوم المتصل طوال العام لما للصوم من فوائد لا تحصى ولا تعد فعزم على استعمالها لان أسماء هؤلاء الأطباء تجعل زوجته تحترم

اقوالهم والتالي تقتنع بها "

واعد من جديد ترتيب الأقوال ،، والأمثال والاستشهادات وكلمات الحكماء والفلاسفة واختار ان يبدأ خطبته بعرض عام لمسألة الصوم سيقول لها في البداية :

المعدة بيت الداء ،، شيء لا جدال فيه ولذلك ينبغي ان نتعامل معها بمنتهى الحذر والحكمة لا نعطيها الا قليل القليل حتى نحافظ عليها بعدم الاستعمال فنحتفظ بها الى آخر الحياة ،، فتنتهي حياتنا ونحن لم نستعملها ونحملها معنا الى القبر كما وجدناها يوم ان ولدناء لنعتبرها يا سيدتي امانة ،، والامانة يجب الاحتفاظ بها لذا علينا ان لا نأكل كثيرا ، وأن نشرب كثيرا لأن الماء الى الان لا يشكل مشكلة بالنسبة للمعدة والجيوب ايضا وهي اهم وعلينا ان لا نأكل اللحوم والسمك والفواكه ففيها بلاء كبير للمعدة ،، وعلينا ايضا ان نعطيها دائما وأبدا نوعا واحدا من الأكل حتى لا نرهقها بالعمل وعلينا ان نستعمل منها مساحة صغيرة جدا .

بهذا سيبدأ خطبته العصماء فاستعدي يا زوجة عبد الله العريان واعدي معدتك لكلام الاطباء والحكماء ! ،،،

جمعية اصدقاء صوم رمضان بالليل والنهار !

قررت اليوم ان أعود الى زوجتي واقنعها بالتي هـي أحسن ،، وبأنها على خطأ ،، وبأن رمضان ليس صياما في النهار ،، وأكلا وشربا وتخمة وسهرا امام التلفزيون فـــي الليل ،، وبأن الشهر الكريم شهر عبادة ، وسفر الى الله وعودة الى اليقين الذي ضاع من الناس في هذا العصـــر القلق ،، وبأن حياة رمضان ينبغي ان يكون قوامها التقشف والتصوف ، والزهد ، والترفع عن الشهوات وفرار من اغراءات الدنيا ،،

اعددت نفسي لخطبة طويلة ! ،، واخترت الكلمات ،، والأمثال ،، والاستشهادات ،، وأقوال الفلاسفة والحكماء واهل الذكر ،، والبداية والنهاية ،، واكتشفت انني صاحب حجة وقوة منطق فأصابني الاعجاب والتيه ،، واعجبت بنفسي اعجابا جعلني أتخيل انني اصبحت مثقفا كبيرا من كبار المثقفين ،، اخطب في الناس من خلال الراديوا والتلفزيون

وأقدم لهم النصائح في امور دينهم ودنياهم وافتح لهم أبواب الحياة على مصراعيها وانهاهم عن المنكر وأدعوهم الى طريق الحق والفضيلة ،، ولكن سرعان ما تخلّيت عـــن الخيال ،، لان الخيال لم يطاوعني ،، ولان صورة المثقف التي تخيّلتها كلاسيكية ومتخلفة الى حد كبير ،، فالمثقف في عصر الثقافة التي انتشرت في كل مكان ووصلت حتي الى قبائل التخلف ليس خطيبا ولا واعظا ،، ولا يمكن ان يكون كذلك لان الناس سوف لن يستمعون اليه مهما قال ومهما خطب ، ومهما استعمل من قوة بلاغة ، وسحر بيان !

ومن الخيال رجعت الى الواقع لاجد نفسي وقد انهكني التعب ، وعذبني تشتت الفكر ، وحطمني الهم ، فاسرعت الخطى نحو البيت لانال قسطا من الراحة وأقوم بدور المثقف الكلاسيكي أمام زوجتي علها تقتنع بان ما تطلبه من لحوم وبيض وتوابل وعجين وفواكه ،، الى آخر تلك القائمة التي لو تقدمت بها الى أكبر مغازات العاصمة لتصوروا انني تاجر انوي فتح محل صغير لبيع المواد الغذائية ! ،،

لقد قررت ان القي خطبتي حول فوائد الصوم المطلق خلال ايام رمضان ، والصوم النسبي خلال لياليه كلفني الأمر

ما كلفني حتي ولو فتحت زوجتي صوت التلفزيون على اخره لتغطي على بصوتي الضعيف وتنافسيني به ،، انها كثيرا ما تلجأ لهذه الطريقة كلما سمعت مني كلاما لا يرضيها ! ،،

سألقي خطبتي رغم كل شيء كما اعددتها ومن الفها الى يائها ، واذا أفادتني مع زوجتي ساكتبها ثم أوزعها على اصدقائي ليقرؤوها هم ايضا على زوجاتهم ،، وبعد ذلك نفكر في تكوين جمعية نسميها جمعية اصدقاء صوم رمضان بالليل والنهار ! ،،

سـر العصـر

اليوم ، عبد الله العريان حزين جدا لأن خطبته التي امضى فيها وقتا طويلا واجهد من اجلها عقله كثيرا واستعان بكل مخزونه الثقافي الذي لم يتعلمه من المدرسة ولكن مــن الحياة ،، تلك الخطبة العصماء لم يلقها ،، وسقطت في البحر السيان والاهمال وسقط هو في البحر من الهم الذي لا يخرج منه الا ليجد نفسه وقد عاد اليه مدفوعا ومضطرا ،، كانه مكتوب عليه ان يسبح في بحر الهم طوال حياته حتى انه يتساءل في معض الاحيان او ربما دائما ،، من يدري هل كان الناس يسبحون معه في هذا البحر ؟ لا ! ابدا ليس وحده بالتاكيد ،، فهناك زوجته المظلومة ! وهناك عائلته المحرومة الكثيرة العدد ! وهناك ايضا جيرانه وكل سكان الحي الذي ولد وعاش فيه ! ولم ينتقل منه منذ ان خرج الى هذه الحياة ،، صحيح انه انتقل من بيت الى بيت ولكن دائما في نفس الحي وفي وسط نفس العباد .

ونصيحة من عبد الله العريان ،، اذا اردت ان تعرف الدنيا وما فيها من عجائب لا تذهب الى اي مكان في العالم !

اذهب فقط الى حي عبد الله العريان ! ،،

خذ مثلا برج بيزا في ايطاليا ،، ذلك المعلم التاريخي الشهير الذي يقصده الاف السيّاح من كل أطراف الدنيا ويقفون امامه وكأنهم أمام عفريت ! ،، بينما المسألة لا تستدعي كل ما ينفقونه من دهشة واستغراب واعجاب ! المسألة وما فيها ان هذا البرج قائم الذات منذ زمن ليس بالقصير ومع ذلك فهو مائل ولم يسقط اي انه ليس مستقيما ككل الأبراج والمباني !

هذا البرج يعتبر لا شيء لو قارنته بما في حي عبد الله العريان ،، ففي هذا الحي تجد بيوتا بأكملها مائلة يسكنها البشر ،، واي بشر ؟ ! ان خلق الله في هذا المكان لا يعدهم الا خالقهم ! وفي البيت الواحد تجد أكداسا لا اعدادا من الناس ،، ويخيل الى عبد الله ان حيهم كان اسبق أحياء العالم الى مشكلة الانفجار السكاني ،، أو لعله هو الذي اكتشفها !

تلك البيوت المائلة العجيبة لا تستدعي اعجاب أو عجب السواح كبرج بيزا لأنهم لم يسمعوا عنها ،، ولم يقرؤوا عنها ! وهي ايضا ليست مصدر استغراب أو تندر سكان الحي ! فهي من وجهة نظرهم بيوت والسلام ! ومن حسن حظ هؤلاء

السكان ان اصحاب البيوت لا يعرفون برج بيزا ولا أهميته لانهم لو عرفوا فانهم سيضاعفون في معاليم الايجار ! ويعتبرون بيوتهم تحفا تاريخية وربما اطردوا منها السكان بدعوى انها لا تليق بهم وليسوا في مقامها ،، وهي بالفعل كذلك لانها تليق بالحيوانات ! وربما لا أيضا فالحيوانات والكلاب على وجه الخصوص تعيش في زمن الناس هذا عيشة ناعمة رغدة افضل من حياة كثير من عباد الله ! فهل لم تسمعوا مثلا بذلك المليونير الذي مات وترك كمية هائلة من العملة الصعبة لكلبه لو وزعوها على سكان حي خميس فجلة لتصوروا ان القيامة قامت وان أبواب الجنة فتحت !

وهل سمعتم بقصة السفير العربي الذي ذهب الى سويسرا ومعه كلبه فلما بلغ السلطات السويسرية ان السفير يترك كلبه ينام في حديقة - الفيلا - استدعوه للتحقيق معه بتهمة اهمال الكلب الموقر ولو لا ان لدولته علاقة صداقة وطيدة مع سويسرا لسلطوا عليه اشد العقاب ! وقد اكتفوا بان طلبوا منه ان يرسل كلبه الى احد الفنادق المخصصة للكلاب لينام بها في الليل ثم يعود في النهار الى البيت !

اذا لم تسمعوا بهذا القصص فانتم لم تكتشفوا سر العصر !

انا اشفق ،، اذن انا موجود

استيقظ عبد الله العريان كالعادة ،، وحاول ان ينهض ويتوكل على الله ليذهب الى عمله ولكن أحس بان جسده أصبح شيئا رخوا ،، وعظامه مدقوقة ،، واعصابه منهارة ،، ورأسه كانه ملهى ليلي فيه رقص وضجيج وظهره كان سيارة مرت عليه ،،

باختصار كان محطم الجسم والعقل معا ! ،، لذلك قرر ان لا يذهب الى العمل ، وهو في هذا القرار مجبر لا بطل ، حتى في قرار بسيط كهذا لا يقدر ان يكون بطلا ومع ذلك وعندما حاولت زوجته ان تحثه على الذهاب الى العمل أوهمها بان ليست له رغبة اليوم في ذلك ، فاستغربت ومطت شفاهها ، وقالت له وهي تغادر الحجرة

هذه هي أول مرة تتخذ فيها مثل هذا القرار ،، فمنذ ان تزوجنا وانت تضع العمل في المرتبة الأولى وقبل بيتك ،، واحيانا قبل حياتك ،، حتى انني أتصور في بعض الأحيان انك تعيش لتعمل .

قالت له ذلك بسخرية لاذعة مكشوفة ثم غـــــادرت الحجرة ،،،

وأحس عبد الله العريان بطعنة في رجولته ولكن لا يهم ، فهذه المرأة بالذات يتحمل طعناتها ، ومهما يكن من أمر فمعها حق ، وألف حق ، فهو رجل لا يتخذ القرارات ، بل ينفذها في العمل يقولون له افعل كذا ، فيطيع ، وفي كل مجالات الحياة هو انسان مأمور ، ومنفذ ، ولا يرفع رأسه ليناقش مجرد مناقشة صغيرة ، ولم يقل في حياته ولا مرة واحدة عبـــارة « لا » ،، انه يستعمل كلمة « نعم » دائما وباستمرار ! ،،

ومن حق زوجته ان تستغرب قراره بعدم الذهاب الى العمل ، ولكنها لو تعلم الحقيقة لما استغربت ،، ولفهمت انه لم يتخذ القرار الأول في حياته ، وانه مازال اداة تنفيذ انه لم يقرر البقاء في البيت بمشيئته وبمحض اختياره ان صحته المعتلة هي التي فرضت عليه ذلك ،،، ان حالته العقلية والبدنية هي صاحبة القرار ،، وما هو الا منفذ ومجـــرد مطيع ،،

ولو سألته زوجته عن صحته كما تفعل كل الزوجات في

العالم لقال لها ان احواله ليست على ما يرام وانه يرى شبح الموت يبحث عن أول فرصة لينقض عليه ويختطفه مـــن الحياة ،،

ولو سألته عن سبب قرار البقاء في البيت لقال لها أنه عاجز عن الحركة ،، وعن بذل اي مجهود ،،

لو سألت ، لما استغربت ،، ولوجدت الامر في منتهي البساطة لا يحتاج الى تعليق أو سخرية أو تمطيط للشفاه ، ولكن زوجته تعودت على عدم السؤال ،، فهي لا تسأله الا في حالات نادرة ،، وحتى عن صحته لا تسأله كما تفعل كل زوجات رجال العالم لانها تعرف انها في سوء متصل وفي انهيار دائم ،،

مسكينة زوجته ،، ومسكين هو أكثر ،، لقد اشفق على نفسه أحيانا وأشفق على شريكة حياته غالبا وهو في حالة شفقة دائمة ولذلك فان أهله وأحبابه يستغربون منه حالة الضعف العاطفي التي رافقته منذ مطلع حياته ،، وليخفف من استغرابهم كان يقول لهم ؟؟ أنا اشفق ، اذن أنا موجود ، ولو كانوا يعرفون الفيلسوف ديكارت لما قبلوا منه ان يبدل في مقولة هذا الفيلسوف : « انا افكر ، اذن انا موجود ،

دجاجـــة كاملـــة !

لما أطال عبد الله العريان الوقوف امام المطبخ التفتت اليه زوجته بعد ان كانت مشغولة عنه ،، وطلبت منه ان يدخل لمساعدتها او ان يعود الى الغرفة ،، فقال لها ·

ـ أريد ان أسألك سؤالا واحدا ثم أعود من حيث اتيت ،، قالت له والسكين بيديها

ـ لا تشغلني بأسئلتك ، فانا كما ترى اعد الطعام ولا وقت عندي اليوم بالذات للثرثرة ،،

قال سؤال واحد ،، وبعده اتركك لما انت فيه من مهام تحترمك من أجلها معدتي المقهورة

قالت تفضل ،، هات سؤالك وامري لله

قال عندما عدت اليوم من العمل وجدت اغلب الجيران امام البيت ولم افهم سبب تجمهرهم الى الآن ،، في البداية ظننت ان انفك اكتشف بئر بترول ،، ولكن بعد ان دخَلت الى البيت فهمت انني كنت واهما ،، فلماذا اذن تجمهر الجيران

امام البيت ؟

قالت   معهم الف حق ،، وحين تعرف السبب سينتهي العجب

قال   وما هو هذا السبب ؟

قالت   سوف لن تعرفه إلا بعد ان نضع مائدة الافطار

قال   لن أطيق الانتظار ،، وانت تعملين انني لا أصبر على مثل هذه الأشياء ؟

قالت   لقد اشتريت اليوم دجاجة من السوق وعدت بها وهي في يدي فلما شاهدني الجيران ظلوا يجرون ورائي وهم كلهم عجب الى ان وصلت الى البيت ،، وحاول أكثر من واحد اختطافها ولكن كلهم عجزوا لأنني لم أكن أمسكها بيدي فقط بل ربطتها بحبل ووضعت الحبل حول حزامي بحيث من يحاول اختطافها مني يكون مضطرا لاختطافي انا أيضا ،، ولذلك فلقد فشلوا كلهم ،،

وكاد عبد الله العريان انْ يصعق عندما سمع بان دجاجة كاملة دخلت الى بيته ،، وتوهم ان هذه علامة من علامات نهاية

الدنيا وطلب من زوجته ان لا تذبح الدجاجة وان تتوقف عن اعداد الطعام الى ان يأتي بمصور ليلتقط صورة فوتوغرافية يحتفظ بها على سبيل الذكرى ويقدمها لكل من يشك في انه اشترى ذات يوم دجاجة كاملة ،،

ورأت زوجته ان قرار خروجه الى الشارع ثانية في هذه الظروف الاستثنائية سيجّر اليه المتاعب ،، فسوف يحيط به الجيران من كل جانب ،، وينهالون عليه بالأسئلة عن الدجاجة وصحتها وطعمها وماذا سيفعلون بها هل سياكلونها في يوم واحد ام سيقددونها وهل سيعطون البعض منهـــا للجيران ! ،، الى أخره !

واقترحت عليه زوجته ان يحتفظ بالريش للدكرى وكحجة ايضا يدمغان بها كل من يجادل في أمر شراء دجاجـــة كاملة ،،

ورفض عبد الله هذا الاقتراح لان الناس سيظنون أنه جمع الريش من السوق ولم ياكل الدجاجة ،، اما الصورة فانها حجة لا بعدها حجة خصوصا عندما يلتقط المصور الدجاجة وهي تقف بينه وبين زوجته ،،

وقال لزوجته انه سوف يجتمع بالجيران بطريقة جماعية ويقدم لهم أقصى ما يمكن من معلومات حول الدجاجة وبذلك لا يضطر للاجابة عن أسئلتهم فرادى ثم يذهب للبحث عن مصور ،،

ووافقت زوجته على هذه الفكرة ،،

عمليّة قرعـــــــــة !

حين خرج عبد الله العريان من بيته الى الشارع وجد جيرانه كما تركهم جماعات ! ،، لم يتفرّقوا ، ولم يتركوا بـــاب البيت ! ،، وعندما اقبل عليهم التفوا حوله وهم ينظرون اليه بشيء من الاعجاب ! ، وبشيء آخر من الغبطة ! ،، كيف لا وهو صاحب دجاجة كاملة ! ،، ووجد ان في اعجابهم الشديد به بعض المبالغة فالمسألة لا تستعدي كل هذا الاسراف في الاعجاب والا كيف سينظرون الى من يأكل خروفا كاملا كل يوم ! ،، والي من يذبح مجموعة من الخرفان بين الحين والحين بمناسبة وبلا مناسبة !

وحاول ان ينظم صفوفهم بطريقة تجعلهم يستمعون اليه جيدا ،، ففشل !

وحاول ان يطلب منهم ان لا يتقدموا باسئلتهم في وقت واحد ،، فلم يفلح ! ،،

وامام هذا الوضع المعقد اخذ الكلمة فسكتوا وبـــدأ يتكلم ،، فانصتوا اليه وكأنه سيقول كلاما خطيرا وسينطق

بالحكمة ! ،،

قال لهم ان الدجاجة سمينة بعض الشيء وقد قرر مبدئيا هو وزوجته ان يؤجلا عملية استهلاكها في انتظار ان يعثرا على مصور يلتقط لها صورة ! ،، واعلمهم بانه سيذهب حالا للبحث عن مصور ليقوم بهده المهمة !

وقال موجها كلامه لكل الحاضرين

« انتم تعلمون ولا شك أن الانسان يحتاج بين الحين والاخر لتذكر ذكرياته الجميلة ومناسباته السعيدة وهده الدجاجة حدث رائع ونريد ان نحتفظ بذكراها ولذك قررنا أن نلتقط لها صورة فوتوغرافية ،، فالصورة ستساعدنا على الاحتفاظ بهذه الدكرى ! »

وقال لهم أيضا أما الدجاجة في حد داتها فانها في صحة جيدة وعليها تظهر أثار النعمة ،، ويبدو انها كانت تعيش عند فلاح من كبار الفلاحين ! ،، وهي ليست بالسمينة ولا هي بالهزيلة ،، وسوف نحاول ان لا نستهلكها في يوم واحد لان في ذلك تبدير ! ،، والتبذير لا يرضاه الله ،، سنقددها ،، سنقطعها الى قطع صغيرة جدا ،، ونأخذ منها

قطعة واحدة كل يوم وقد قمنا بعملية حسابية بسيطة فوجودنا ! اننا سنظل نأكل لحم الدجاجة مدة شهر ونصف تقريبا ،،

أما الراس ،، اي راس الدجاجة فقد قررنا ان نمنحه لمن يفوز في عملية القرعة التي سنقوم بها حالا ،

وبمجرد ان اعلن عن اجراء عملية القرعة لاحظ الجيران شعورا بالطمأنينة والانشراح دب الى النفوس ،، فاقتربوا منه وكل واحد منهم يحاول ان يفوز قبل غيره بمصافحته والتعبير له عن اكباره وشكره وامتنانه وتقديره لهذا التصرف النبيل !

اجريت عملية القرعة ،، وتمت بسلام ،، وتحدد الجار الذي سيأخذ راس الدجاجة وتقبل الفائز في العملية تهاني بقية الجيران وتفرق الجمع ،،

الحلم الذي لم يتحقق !

ودع عبد الله العريان جيرانه قبل ان يتفرقوا ولم يبق الى جانبه الا الجار الذي فاز في عملية القرعة ،، فلقد أصر هذا الجار علي الذهاب معه الى المصور ،،

وفي الطريق لاحظ عبد الله العريان أن جاره هذا ساذج مغرق في السذاجة ،، سكان الحي كلهم سذج ،، ولكن هذا الرجل بالذات على درجة كبيرة من السذاجة الى حـــــد الغباء ! ،،

ولاحظ عبد الله العريان ان جاره يمشي في الشارع وهو يغني تارة ! ،، ويطلق بعض الأصوات تارة أخرى ! ،، ولما سأله لماذا هو يفعل هذا قال له انه سعيد براس الدجاجة الذي فاز به في عمليّة القرعة أشد السعادة ! ،، وانه يحس باحساس شبيه بذلك الإحساس الذي غمره يوم زواجه ! ،، ثم قال له متسائلا ·

كيف تستطيع ان تاكل دجاجة كاملة بمفردك ؟

قال له عبد الله   سوف لن أكل بمفردي من ناحية ،، فزوجتي تقاسمني كل شيء ،، ثم انني قررت تقديدها !

وكان هذا السؤال بداية حوار بين فجلة وجاره ،،

الجار   وهل تستطيع ان تأكل دجاجة كاملة بمفردك ؟؟

عبد الله   لم أجرب ،، ولكن اعتقد انني أستطيع ،،

الجار   سبحان الله ! ،، شيء غريب ! ،، دجاجة بأكملها يأكلها رجل واحد ! ،، شيء لم اسمع به ،، لم اره ابدا ، ولم أجربه قط !

عبد الله   وما رأيك في الرجل الذي يأكل هو وجمع من ضيوفه مجموعة من الخرفان ؟

الجار   لا ،، لا أصدق ،، هذا شيء لا يوجد ولم يحدث في التاريخ   !

عبد الله   لقد رأيت ذلك بعيني

الجار (متعجلا ومستغربا)   وأين ؟

عبد الله   في الفيلم الوحيد الذي رأيته في حياتي ؟

الجار (مستنكرا) ما هو الفيلم ؟

غبد الله (متسائلا) الا تعرف السينما ؟

الجار أسمع بها ،، ولكن لا أعرف ماذ يفعلون فيها ؟

مرت من أمامهما سيدة انيقة جدا ومعها كلب أنيق تحمله بين ذراعيها فنسي خميس فجلة جاره وانقطع الحوار وظل يحملق في السيدة وفي الكلب الذي تحمله الى ان همزه رفيقه برفق وقال له

اتصدق ان قلت لك انني لم ألمس دجاجة طيلة حياتي ؟

عبد الله (بعدم اكتراث) لا أصدق !

الجار المرة الوحيدة التي حاولت ان ألمس فيها دجاجة كانت منذ سنة تقريبا ،، ذهبت ذات يوم لأحدى القرى فرأيت دجاجة بيضاء تجري ،، اعجبتني ، وخلتها عروسا ! ، فعزمت على ملاحقتها ،، لالمسها فقط ثم اتركها ،، لم أكن أنوي سرقتها ، صدقني ان فكرة السرقة لم تخطر ببالي قط ،، السرقة حرام ،،،، وأنا رجل لا يحب الرزق الحرام ،، فقط كنت أحب ان أداعبها وألمسها ولكن امنيتي لم تتحقق ! ،،

فبمجرد ان بدأت اعدو خلفها ظهر أمامي رجل مفتول العضلات بيده بندقية وقطع الطريق امامي موجها فوهة البندقية نحو صدري المصدور صائحا : لص ، لص ،، وفي لمح البصر أحاط بي جمع من الناس لا أدري الى الآن من أين خرجوا ولا كيف جاؤوا ،، وانهالوا عليّ لكما وضـــربا وسبا ! ،، وغطوا وجهي بشيئ أحمر ادركت بعد أن نجوت بجلدي انه دم ! ،، ثم حملوني من يدي ورجلي ورموني في نهر القرية لقد ظنوا انني سارق ! ،، وانني كنت أنوي سرقة الدجاجة ! ،، ولقد جربت ات أقول لهم حقيقة ما في الأمر ، وانني كنت أنوي لمس الدجاجة بيدي فقط ،، ولكنهم ضربوني على فمي ورفضوا ان يستمعوا اليّ ! ،،

تلك هي المرة الوحيدة التي حلمت فيها بأنني سأضع دجاجة بين يدي لأداعبها ولكن الحلم لم يتحقق ،، ابعد هذا تطلب من أصدق ان في الدنيا من يأكل دجاجة كاملة ؟

سهرة مع المصوّر

أخيرا وجد عبد الله العريان المصور فطلب منه ان يرافقه الى البيت ، وفي الطريق الى البيت كان المصور لا يتكلم ولا يبتسم ، انه أشبه بالة ! ، فهو ليس حزينا ولا سعيـــــدا ايضا ! ، ولكنه كان يمشي مع خميس فجلة فقط ، أما الجار فلقد كان دائم الحديث او الغناء ! ، انه سعيد برأس الدجاجة الذي يستحصل عليه ! ،، وقبل ان يصلوا الى البيت بمسافة قصيرة قال الجار لخميس فجلة

ـ أود لو تسمح لي بأن يلتقط لي المصور انا الآخر صورة مع الدجاجة ،، فهي فرصة لا تتكرر لان المس دجاجة واقترب منها ، وفرصة ايضا لان احتفظ بصور لهذه المناســـــبة الفريدة !

فقال له عبد الله العريان بشيء من الزهو .

نحن اخوان ، اعتبر الدجاجة دجاجتك ، وخذ معها ما شئت من الصور .

الجار شكرا ، وألف شكر ، وسوف لا انسى لك هذه المكرمة ما حييت ، ولكن قل لي بالله عليك الا تعرف القراءة والكتابة ؟

عبد الله ولماذا هذا السؤال ؟

الجار لقد لاحظت من حديثك معي انك متعلم ، فاحببت بسؤالي ان أتأكد من ملاحظتي !

عبد الله نعم ،، اعرف القراءة والكتابة

الجار اذن لماذا انت على هذا الحال بينما انا اعرف ان الذين يقرؤون ويكتبون لا يقطنون في الاحياء الشعبية ويأكلون هنيئا ومريئا ويرتدون أفخر الثياب ، بل هناك منهم من له سيارة ، وأحيانا سائق ،،

عبد الله · ليس كل من قرأ أو كتب على الحال التي ذكرت فمنهم من هم مثلي ودوني ،،

الجار ابني يحسن القراءة والكتابة فهو يذهب الى المدرسة ، ولم ابعث به اليها الا ليصبح احسن مني وكالذين يعرفون القراءة والكتابة ، فهل يسصبح مثلهم ام مثلك ؟

ولم يجد خميس فجلة متسعا من الوقت ليجيب جاره فلقد وصلوا الى البيت فوجدوا صاحبة البيت في الانتظار ، ودخل المصور فأصابته الدهشة لمّا لم يجد شيئا يصوره الا البيت والزوجة فالتفت الى عبد الله العريان متسائلا اين الطفل الذي ستصوّره ؟ ، فأجابه عبد الله ليس لي أطفال ، ولا أنوي تصويرهم ،،

فقاطعه المصور قائلا اذن لماذا اتيت بي الى هنا في هذا الليل ؟ الا يوجد عندك حفل ختان ؟

عبد الله لا ،، ولكن عندي دجاجة ،،

قال المصور وهو يكاد يصعق من هول المفاجأة

دجاجة ،،، دجاجة !

عبد الله نعم دجاجة ،،،

وذهب يعدو نحو المطبخ واحضرها ،، ثم ويضعها بينه وبين زوجته وقال للمصور

صوّر يا أخي ،، صور

ولم يجد المصور ما يفعل سوى ان يعد الته ويصور ! ،،

ثم تقدم الجار ، وأخذ الدجاجة بمنتهى الرفق والحنان وكأنه يحمل طفله الرضيع ثم أمر المصور بالتصوير

وما كاد المصور ينتهي من تصوير عبد الله العريان وجاره ، حتى سمعوا طرقا عنيفا على الباب ، فخرج فجلة ليرى من الطارق فوجد ان بعض الجيران جاؤا يطلبون منه ان يأذن لهم بأن يتصوروا أيضا مع الدجاجة ودخلوا جميعا الـــى البيت ، والمصور في دهشة من امر هؤلاء بل انه أوشك على الشك في عقولهم ،،

وامضى الجميع شطرا من الليل وهم مع المصور الى ان قرر عبد الله العريان ان يعيد الدجاجة الى المطبخ بعد ان لاحظ انها لم تعد تحتمل ضوء الكاميرا ،، فخرج الجميع يتقدمهم المصور الذي غادر البيت وهو يعتقد إعتقادا جازما أنه كان في بيت للمجانين ،،،

٥

القنديل الهارب من مملكة الفضاء

بقي عبد الله العريان في البيت هو وزوجته لوحدهما ،، وكان الليل قد مضى اكثر من شطره ،،، ورأى في تلك الليلة ان عدد النجوم أصبح أكثر ، كانت السماء زرقاء والنجوم تبدو فيها كأنها قناديل تضيء ليل الساهرين ،، وتصور عبد الله ان النجوم كانت تضيء له ولزوجته فقط 'وتمنّى لو صعد الى فوق ،،، الى السماء ليسرق ضوء تلك القناديل ،،،، فيصبح طوع امره وملكه بحيث يستعمله عندما يشاء ! ،،،، وتمنّى لو ان قنديلا واحدا يهرب من مملكة الفضاء ويأتي الى بيته ليسكن فيه دائما فيصبح صديقه يخفف عنه الظلام الكثيف والمخيف الذي يملأ عليه حياته بالرعب والهلع ! ،،،

وفجأة قالت له زوجته وهي تتثاءب ،،، « الا تريد ان تتوقف عن السرحان الذي انت فيه ،، وتنام فتستريح ،، »

فقال لها :

قبل النوم ،، اريد ان أعرف كيف اشتريت الدجاجة ومن أين أتيت بالمال ؟

قالت له وهي تبتسم ·

رمضان كريم ،، لقد حدث ثانية ما حدث في ذلك اليوم التاريخي ،،،

قال أي يوم تاريخي تقصدين ؟

قالت ذلك اليوم الذي وجدت فيه الدينار على الأرض

قال وهو لا يكاد يصدق ما يسمع أقسمي بالله

قالت · أقسم بالله العظيم اني وجدت دينارا كاملا على قارعة الطريق ،،

وقفز من مكانه وطبع قبلة حارة على جبين زوجته وهو يقول لها ·

فعلا رمضان كريم ،، انه شهر الخير والبركة ،، الشهر الذي يعطي للناس بلا حساب ،، لماذا لا تكون أيام العام كلها رمضان ؟ ،،، يا رب لك الحمد والشكر

ولم يذق في تلك الليلة طعم النوم ،، ولم يأكل شيئا وبقي يتجول ببصره في الفضاء بين النجوم التي لا تعرف النوم ،،، وظلّ يتخير في القنديل الذي سيهرب من مملكة الفضاء ويصبح صديقه على الأرض ،، وأوشك على اختيار القنديل ثم تراجع ،، ولا يدري لماذا ،، ثم اختار قنديلا ثانيا ،، ثـمّ ثالثا ،، ولم يستقر له قرار ،، واكتشف انه كان يختار لمجرد الاختيار الذي لم يمارسه منذ ان ولد حتى في الأشياء البسيطة جدا ،، وبقي في تلك الليلة الى الفجر مع النجوم ،، وعندما نهض في الصباح ليذهب الى عمله تذكر انه لم يحدد اختياره ،، وفهم انه من كثرة عدم ممارسة الاختيار أصبح عاجزا عن كل اختيار ! ،،،

انت مدين لهذا الانف العبقري ! ؟

عاد اليوم عبد الله العريان الى بيته في ساعة مبكرة على غير العادة فوجد عشرات من الجيران يتزاحمون امـــــام البيت ! ،،

هل أصاب زوجته ما لا يتمناه لها ؟ هل اشتعل في بيته حريق ؟ ام هل اكتشفوا في هذا البيت الصغير البسيط بئر بترول ؟ أسئلة كثيرة جالت بخاطره وهو يتقدم بخطوات سريعة نحو خلق الله !

التفت اليه كل من كان أمام البيت وساد الصمت فجأة ! وانقطعت الأصوات التي كانت تملأ المكان منذ لحظات فقط ! وحياه كل واحد من الجماعة بتحايا رقيقة لطيفة لم يعهدها من كل جيرانه ! وابدوا له من الاحترام ما لم يتعود بـــه منهم ،،، وكاد يصدق ان سبب تجمعهم في هذا المكان

بالذات هو بئر بالبترول .

قال في نفسه وهو يرد على تحايا الجيران بشيء من الوقار الذي هبط عليه فجأة وبحكم الموقف الجليل ،،، ها أنت ستصبح بين عشية وضحاها مليونيرا وأميرا من أمراء البترول وثريا من أثرياء العالم تسكن القصور ويخدمك الخدم والحشم ،، وتأكل اللحم ،، واه من كلمة اللحم التي لا تحبذ معدته سماعها ! وستعطي لقدميك اجازة طويلة لأن السيارات الغارقة ستتولى نقلك ،، ولماذا سيارات ؟ فلقد اصبحت عادية جدا ويملكها أغلب الناس وليست شيئا في امكانه ان يميزك عن بقية القوم ،، اشتر طائرة عمودية ! نعم طائرة واه من الطائرات التي لم يرها الا وهي في الفضاء !

وستتجول في العالم وتشاهد برج بيزا ومدن الحضارة وتتخلى عن الفقر أو هو يتخلى عنك وتخرج نهائيا من بحر الهم والغم وتسبح في بحر آخر هو بحر المال والذهب والسعادة والطمأنينة ! وتفتح مستشفى للمرضى ومدرسة لكل الناس ومطعما ليأكل فيه مجانا وبلا مقابل كل الفقراء الذين تعرفهم وتجعل الأكلات لحميّة كلها حتى ينتقموا من اللحم الذي ظل شامتا فيهم دهرا طويلا كان هناك عداوة بينه وبين اسنانهم ومعدهم !

ولكن لماذا تفعل لهم انت بالذات كل ذلك ؟ ! الم تكن قبل ان تكتشف في بيتك بئر البترول فقيرا ؟ ! هل افكر فيك الذين استطاعوا ان يفلتوا من البؤس ويتسللوا خفية وبطرق شتى الى عالم اخر !

اذن لا تفعل لهم شيئا ودعهم لفقرهم عليهم ان يكتشفوا البترول في بيوتهم اذا ارادوا ان يتخلصوا من فقرهم عليهم ان يتزوجوا بزوجات كزوجتك صاحبة الأنف العبقري الذي اكتشف بئر البترول في بيتك

عليك الان ان تدخل الى بيتك وتقدم لزوجتك قبلة واطبع القبلة على انفها بالذات فانت مدين له ولا تنس انه هو الذي اعطاك الثراء والهناء وهنئها بهذا الأنف الذي كنت لا تقدره ولا تعره اهتماما وربما لم تنظر له منذ ان تزوجتها نظرة فاحصة ومركزة لقد كنت تنظر الى زوجتك نظرة شاملة ! لم تكن تنظر اليها بالتفصيل ولم تكن تدقق النظر في كل جزء منها على حدة بل كنت تعاملها ككتلة من اللحم لا أكثر ولا اقل

اليوم انظر الى انفها فقط وحاول ان تجد فيه علامات النبوغ والعبقرية التي ادت به الى اكتشاف بئر البترول انه

انف يستحق ان يمدحه الشعراء فيقولون فيه القصائد والاشعار ويجدر بك ان تؤمن عليه في شركة من شركات التأمين !

انف امام الباب !

من بيته كانت تتصاعد روائح لم يعرفها انفه الذي كاد ان يفقد حاسة شم الروائح الجميلة واختص في شم الروائح الكريهة ،،

الروائح التي تتصاعد من البيت في هذا اليوم لم يعهدها انف عبد الله العريان من قبل ،، ولم يجربها الا مرة واحدة عندما مر ذات يوم وكان ذلك من زمن بعيد أمام مطعم فاخر من مطاعم العاصمة ! ،، ومنذ ذلك اليوم منع على نفسه المرور من أمام المطاعم لان معدته حساسة جدا ، وتكره الاستفزازات التي من هذا النوع ! ،، ورغم الحاح انفه العزيز الذي ظل لفترة طويلة يلح عليه بالعودة الى المرور ،، مجرد المرور من امام ذلك المطعم الفاخر ،، فانه لم يعد لأن معدته عندما تغضب لا يمكن ان يعيدها الى حالتها الطبيعية الا بعد جهد جهيد والام مبرحة ولذلك فضل أن يغضب معدته على أن يغضب أنفه اللطيف الذي لا يستعمل العنف حتى في حالات الغضب والاستفزاز ،، فهو يختلف في هذه الناحية عن صاحبة الجلالة المعدة ! ،، انه لطيف بالفعل رغم اختصاصه

في شم الاشياء الكريهة ! ،،

ولم يفتح عبد الله العريان باب بيته بسرعة كما يفعل عادة ،، بل وقف طويلا ليشم اكثر ما يمكن من الروائح التي كانت تتسلل من الثقب الباب ،، ولان الفرصة نادرة وقد لا تتكرر ،، ولان أنفه طلب منه ان يقف حيث هو أطول وقت ممكن حتى يفهم هذا الوضع الجديد وتعود عليه خصوصا وانه يحدث لأول مرة .

ووجد متعة كبيرة في الوقوف امام البيت على الرغم من عيون الجيران التي بدأت تتجه نحوه متسائلة عن معنى هذه الوقفة الغريبة التي يقفها أمام بيته ،،

ان جيرانه لا يعرفون لوعة المشتاق لهذه الروائح ! ،، ويجهلون ان في وقفته هذه متعة لا تعدلها متعة أخرى ،، ولا يقدرون متعة سعادة انفه العزيز بهذه الروائح المتسللة ! ،،

انهم بلا ذوق ! ،، ولذلك لا لوم عليهم ! ،،

ورغم التعب وملاحقة الجيران له بالعيون المتسائلة ،، ثمّ بالهمس ،، وأخيرا بالاشارة الصريحة ،، فانه بقي واقفا امام باب بيته يبحث عن ثقوب الباب ليقترب منها بأنفه حتى

يستقبل منها أكثر ما يمكن من هذا البيت الذي يعيش اليوم وضعا جديدا ،،

بقي على تلك الحال زمنا لا يعلمه الا الله وكـــان كالنشوان ،، ولولا زوجته التي فتحت الباب لتخرج صندوق القمامة الذي لاحظ فيه أنفه ان رائحته تغيرت لما فتح الباب ودخل الى البيت في ذلك اليوم !

وقد حسبت زوجته انه وصل لتوه ! ،، ولذلك لم يصارحها بالحقيقة حتى لا تمعن في تعذيبه فتوقف الروائح الزكية التي ازدادت قوة حين دخل الى داخل البيت ،،

الله ما أشهى هذه الروائح ،، انها تنبئ بمائدة شبيهة بالمآدب التي قرأ عنها في كتاب الف ليلة وليلة !

مجرد وهم

دخل عبد الله العريان مسرعا الى البيت بعد ان بقي فترة طويلة امام الباب يستنشق تلك الروائح التي كانت تتسلل من البيت الى الشارع وهجم على الباب وكاد ان يحطمه وهو القطعة التاريخية التي تعود الى عهد محمد علي الحامي راته زوجته فظنت ان الجوع المزمن الذي يعاني منه اثر على اعصابه وعقله ! فلاطفته وسلمت عليه برقة وتقدم منها ووضع قبلة حارة على انفها وداعبه قليلا ثم أعاد تقبيله بحرارة ،، فأصبح شك زوجته يقينا وتأكدت من ان أعصابه فرت منه بعد ان اعيتها الحيلة معه وبعد ان فقدت صبرها وطال انتظارها لغذاء سليم يقويها وينشطها !

وذهب عبد الله العريان مباشرة وهو حائر في أمر زوجته التي تظن انه رجل مجنون ! ولم يفهم كيف تعتبره كذلك وهو أعقل العقلاء والدليل بئر البترول الموجود في بيته ،،، وذهب مباشرة الى ساحة البيت ليرى بعينيه فلم يعثر على أي أثر الا على تلك الحفر الموجودة منذ ان استأجر البيت وهي الحفر التي تشعره بانه يعيش في قصر أثري من عهود

الفنيقيين أو البربر ! بعد ان تجول في ساحة البيت انتقل الى الغرف فلم يجد فيها ما يوحي بان الدم الأزرق او البترول يجري فيها ! فهي كما يعرفها يسكنها الذباب الذي يبدو انه تحول الى شيء قار في البيت !

التفت الي زوجته التي كانت تتبعه وتراقب حركاته واتجاه بصره وسألها عن مكان بئر البترول وهل هو في السطح ؟ فقالت له وهي تضرب بيديها على خديها

« لا حول ولا قوة الا بالله قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا ابعد الاعصاب الفالته والإرهاق المتصل جاء الآن دور الجنون ! يا رب لماذا هذا المصاب الجديد ،، الا يكفينا ما نحن فيه من باساء ! لماذا يا رب ؟ ! تعال يا رجل استرح قليلا لعل الله يعيد اليك عقلك ! »

وقال لزوجته وهو يكاد ينفجر من الغضب « ما هذا الكلام السخيف ؟! وما هذا الدعاء ؟! اهذا وقته يا امرأة ؟ أنا سألتك سؤالا لانني لم أعد أتحمل الانتظار ،،، ولا تحاولي احتكاره وحدك فانا زوجك ولي حقوق ينبغي أن تراعيها وبئر البترول اكتشفتيه في بيتي ولذلك فهو ملكي ،، صحيح ان لك حقوق الاكتشاف وسوف اعترف لك بها ولكن استغلال البئر

من حقي ومن حقي وحدي »

وضحكت زوجته في هذه المرة ،، ضحكت طويلا ثم قالت له . « الحمد لله ،، لقد كنت اظن أن عقلك هرب منك ولكن بمجرد ان تحدثت عن الحقوق والاستغلال فهمت ان عقلك مازال في مكانه ومازال كما عهدته يقتات من الأوهام ،، فق لنفسك يا رجل وعد الى رشك ،، اي بئر هذا الذي تتحدث عنه ، هل هو حلم جديد من احلامك الكثيرة التي نعيش بها أم هو أسلوب جديد لتسليني وتخفف به عني ،، فاذا كان من احلامك فانني أرفضه لانني مللت الاحلام والأوهام ،، واذا كان هدفك اضحاكي وتسليتي فها قد ضحكت وتسليت »

وصدق عبد الله العريان زوجته ،،، صدق ان البئر مجرد وهم ولا وجود له ومع ذلك حمد الله لانه لو عثر على البئر في بيته فان المالك سيحرمه منه ويطرده من البيت فيضيف الى ملايينه بضعة ملايين جديدة !

وحمد الله كثيرا وطويلا لانه لم يضع له البترول في بيته ولانه ابعد عنه الدم الأزرق ! ،،

قصّة الديـــــنار !

لماذا تخيل عبد الله العريان ان في بيته بئر بترول ؟ ،،
لقد نسي تماما ثم تذكر ان جيرانه الذين وجدهم جماعات
أمام بيته هم الذين كانوا سبب ما تخيل وقام لتوه يسأل
زوجته التي كانت في المطبخ عن سبب تجمع الجيران أمام
البيت فوجدها في المطبخ وهي في نشاط حثيث ،، تتحرك ،،
وتغني وعلى شفتيها ابتسامة لم يرها منذ شهور وقف
مندهشا يتأمل في هذا المنظر اللاعادي كيف تبتسم زوجته ؟
ما هي الحكاية ؟هل عثرت في الشارع على ورقة من تلك
الورقات التي لا يقبض الا قليل منها في آخر الشهر وبعد ان
يكون مات إرهاقا وتعبا ؟!

وكيف وجدت هذه الورقة ،،؟ ومتى ، ؟ ولماذا لم تعلمه
بمجرد ان عاد من العمل ؟ اسئلة كثيرة دارت في راسه ولم
تختف الا عندما تذكر الدينار الذي وجدته زوجته على قارعة
الطريق بعد شهر واحد من زواجهما ، فاعتبروه تهنئة لطيفة
من الدنيا بهذا الزواج المبارك وكادت زوجته تجن من فرط
الفرح في ذلك اليوم فلقد عادت الى البيت ومعها الدينار

وكانها عثرت على كنز ،، وغيّرت ملابسها ،، وصففت شعرها ،، ووضعت بقايا البقايا التي بقيت لها من قارورة عطر حفل الزفاف وظلت تنتظر عودته من العمل ، ومن شدة فرحها في ذلك اليوم السعيد لم تحضر الطعام ،، وبذلك ضربا عصفورين بحجر واحد ! وجدا دينارا ووفرا مصروف أكل يوم ! ،،

ولما عاد استقبلته بوابل من القبلات ،، وكانه يعود الى البيت بعد غياب سنوات

واخذته من يده وهي تقول

عندي لك اليوم مفاجأة لطيفة سوف تسعدك وتخفف من أحزانك التي لا تفارقك ،، وفتحت الدولاب واخرجت منه دينارا ، وكاد ان يغمى على عبد الله العريان عندما رأى الورقة وهي تتراقص بين أصابع زوجته ،، كان ذلك في آخر الشهر والدينار له عزه ومعناه ولا يملكه الا أصحابه ،، ولا يتذكر الآن كيف امتدت يده واختطف الدينار وبسرعة البرق وضعه في جيبه ثم ترك يده تحيط بالجيب وجلس يستمع الى زوجته وهي تروي له قصة عثورها على الدينار في الشارع ،، وقد انعشته القصة ولا يدري كم من سيقارة دخنها وهو

يستمع اليها ، ومن شدة اعجابه بقصة عثورها على الدينار في الطريق طلب من زوجته ان تعيدها ثانية ،، وكلما طالب باعادتها كان يفعل كما يفعل جمهور ام كلثوم الذي يطرب لسماع أغاني الست فيطالب باعادة المقطع مرة ومرات !

والي الان لم يسمع عبد الله قصة اعجب بها كقصة عثور زوجته على الدينار ،،، كانت القصة بسيطة ولكنها مفيدة للقلب والجيب معا ،، واين هي القصص التي تضع الدنانير في جيوبك بعد ان تفرغ من سماعها ،، القصة الوحيدة التي وضعت دينارا في جيبه هي التي قصتها له زوجته ،،

ومنذ ذلك الحين أصبحت زوجة عبد الله العريان لا تمشي في الشارع الا وبصرها منخفض يتجه الى تحت ! ،، يوشك ان يلامس الأرض !

انها تمشي ومع كل خطوة تتوقع ان تعثر على دينار ،، أو حتى نصف دينار ،، ولكن الى الآن لم تتكرر القصة !

ليلـــة الطلبـــــات

في تلك الليلة لم يخرج عبد الله العريان من البيت ولم يفكر في ان يتمشى قليلا في الشوارع كما يفعل عادة او أن يذهب الى تلك الساحة الجرداء التي يجتمع فيها بعض سكان الحي فيعقدون مؤتمرهم الليلي حول « الخربقـــــــة » أو « الكارطة » أو « الديمينو »

في تلك الليلة اعتكف بالبيت وأطفا الأضواء ، وأغلق المذياع والتلفاز وطلب من زوجته ان تتركه لوحده ،، لماذا ؟ سألته ،، فقال لها انه يريد أن يتامل ،،، ولكن في أي شيء سيتامل ؟؟ لا يدري ،، كل ما يعلمه انه يحس بشيء غريب في داخل نفسه يدعوه الى الصمت والهدوء والاعتكاف ،،

وبما ان زوجته لا تطيق هذا الهدوء الذي ملأ البيت ،، ولا هذا الظلام ،، ولا تفهم فلسفة التأمل فلقد استجابت لمطلبه وذهبت لتنام وتترك الرجل وكانه في مقبرة ! ،

وضع علبة السقائر الى جانبه وجلس في ظلام حالك وكانه شبح من أشباح الروايات البوليسيّة التي لا تتحرك الا في

غياب الضوء !

كان يعلم ان الليلة هي ليلة القدر ،، وكان يعلم أيضا أن الدعاء في هذه الليلة مستجاب ،، فهي ليلة مباركة خير من الف شهر ،،

لقد سمع عن هذه الليلة في الراديو كثيرا وحدثه عنها بعض الاصدقاء طويلا ،، ووصفها له إمام الحي وهو الرجل التقي الورع بانها الليلة التي تضاء فيها النفوس التي تتجه الى الله خاشعة ، مطمئنة ،، وتغتسل فيها الضمائر من الذنوب والأدران ،،

جلس على قطعة من القماش الغليظ تضعها دائما زوجته على الأرض ليجلسان عليها في حضرة الضيوف فقط ! ،، لقد اختار هذه القطعة بالذات لانه يجب ان يكون في هذه الليلة على أحسن حال !

وتذكر وهو جالس كل ما سمعه عن ليلة القدر فرفع بصره الى السماء ونظر الى النجوم التي كانت تشع بنورها فتملأ نفس الناظر بشيء من البهجة ،، وأحس بأنه ضعيـــف ضعيف ،، ولا قيمة له في هذا الكون ! ،، وتصور نفسه انه ذرة من كثبان رمال لا تصمد امام مجرد نسمة خفيفة

وتضيع كلما هبت عاصفة عاتية فتصبح بلا وجود ،، فهي تستمد وجودها من مجموع الرمال ! ،، والتفت الى نفسه فوجد انه وحيد في هذه الدنيا ،، لا جسور تصل بينه وبين الأخرين ،، ولا علاقات بينه وبين الناس ،، ولا معاملات بينه وبين القوم ،، كل ما في الأمر انه متزوج له امرأة تربطه بها علاقة مصلحية ، وله بعض المعارف من الجيران والعمل تشده اليهم وشائج الزمالة والسكنى فقط ،،، أما تلك العلاقات الحارة التي فيها الأخذ والرد وتجري فيها حرارة الحياة وخصال الوجود فانه لا يتمتع بها ! اكتشف انه محروم حتى في هذه الناحية ! ،، حاول ان يعرف الأسباب ولكن بدون جدوى ! ،، واقتنع أخيرا بأنه مجرد حبة رمل بالفعل فاقدة لكل وزن وقيمة لأنها بعيدة عن كثبان الرمال !

مرة أخرى ،، رفع بصره الى السماء ،، وأخذ يحدق في الفضاء ،، وتذكر ان عليه ان يقرأ بعض سور القرآن فقرأها بصوت خاشع مسموع ،، ثم فكر في ان يدعو الله ليغفر ذنوبه فيعفو عنه وعندما حاول ان يتذكر الذنوب التي ارتكبها وجد انه يملك صفحة بيضاء نقية بلا ذنوب ،، فاحتار ،، وأصابه شيء من الذهول ،، كيف ،، الم يرتكب ذنبا واحدا ؟ وحاسب نفسه فلم يعثر على شيء يستحق الحساب والعقاب

وشعر بأنه ليس انسانا وبأنه كتلة من اللحم والعظام تتنفس كما يتنفس الانسان ولكنه ليس انسانا فالانسان هو الذي يخطئ ،، ويرتكب الذنوب والحماقات ثم يعود الى الله تائبا ونادما وطالبا الصفح والغفران ،، أما هو فانه لم يخطئ ولم يذنب ،، لماذا ؟ وغرق في بحر التساؤلات ثم قرر ان يطلب من الله في هذه الليلة المباركة ان يحقق له امانيه ،، وقبل ان يرفع بصره الى السماء أراد ان يرتب أمانيه ويضبطها فوجد انها كثيرة جدا بحيث يصعب ضبطها فهي متنوعة وذات مشارب مختلفة فاستكثرها على الله ،، وقال في نفسه لماذا لا أطلب من الله المهم فقط وأستغني عن الباقي ،، ولكنه تذكر ما قاله له إمام الحي من ان الله لا يضيق بطلبات عبده مهما كانت كثيرة ،، ومهما ألح ومهما طلب ،، الانسان وحده هو الذي يضيق من طلبات أخيه الانسان ،، أما الله فلا ،، بل هو يحب من عبده ان يطلب منه ويكثر في طلباته

عادت كلمات الإمام الى أذنيه فوجدت مكانها في القلب بل كانها كانت محفورة فيه ،

فبات تلك الليلة وهو مستيقظ يطلب من الله ان يعطيه من فضله ،، وما أكثر ما طلب ومع ذلك فانه لم يطلب كل شيء لان الشمس ظهرت في السماء ،،

راديوا ،،، للبيع !

.

قالت له زوجته : هناك شخص بالباب يسأل عنك ، زعم انه صديق قديم ،،،

وهم عبد الله العريان ان يخرج لاستقباله ثم يذهب معه الى المقهى ، ولكنه تراجع خوفا من ان يكون هذا الصديق من الذين لا يصومون رمضان فيضطر لدفع ثمن فنجـــان قهوة ،،

وطلب من زوجته ان تأتي بالصديق اليه ،، ففي البيت يستطيع ان يعتذر له اذا ما طلب ما يشرب بألف عذر ،، فالاعذار متوفرة وبكثرة !

جلس الصديق الى جانبه وأخرج من حقيبة صغيرة كانت معه جهاز راديو صغير ، فتصور عبد الله أنه يريد أن يتحفه بنشرة أخبار ،، أو بأغنية على سبيل الهدية ! ،، ولكنه سرعان ما وضح له القصد من إخراجه للراديو ، قال له انه على عتبة الجنون ! ،، وانه على حافة الانتحار ! ،، وانه وصل الى مرحلة اليأس التي لا أمل بعدها ! ،، وانه يعاني من

افلاس طال واشتد ،، لذلك فهو يطلب منه ان يحتفظ بالراديو مقابل قرض بسيط ،، عشرة دنانير فقط ! ،، عشرة أوراق لا أكثر ! ،، وسيكون له مدينا بحياته وبمستقبله ، وبذلك ينقذ حياة إنسان من العدم واليأس ويكون قد أعاد الى صديق عزيز ،، الأمل والقدرة على رؤية الخير في حياة الإنسان ،،

استمع عبد الله العريان الى صديقه يتحدث وقد كانت تبدو عليه علامات المرض فلقد كان يتكلم ببطء ،، في صوته ضعف وارتعاشات ،، وفي حركاته تشنج وإرتباك .

ولولا منظره البائس لضحك عبد الله العريان كما لم يضحك في حياته ! ،، ولكن الموقف لم يكن يحتمل الضحك ولا حتى البكاء !،، كان موقفا إنسانيا رهيبا لا تملك الا ان تفقد أمامه كل قدراتك على الضحك أو البكاء ،،، لا تستطيع الا ان ترفع بصرك الى السماء وتبحث عن سرهذا الكون المحشو حشوا بالمتناقضات ولا تقدر الا على السياحة بعينيك التي أرهقها السهر في فضاء الله الواسع عسى أن يتأثر صدرك برحابة الفضاء فيتسع ،، ويتسع الى ان يصبح بالا حدود ،،

لا يملك عبد الله العريان إلا ذلك وربما لا يملكه أيضا فهو

ضعيف بطبعه ،

واحتار عبد الله مع صديقه ، هل يعيد اليه الأمل بالكلمات التي لا يدخر سواها ؟ ، هل يحيي فيه جذوة الثقة بالحياة من خلال المسكنات الكلامية ؟، وهل ينصحه بقراءة قصة سيدنا أيوب الذي كان قطعة من الصبر ؟ وهل ؟ ، وهل ؟ لقد ظل فترة لا أحد يدري كم دام وهو صامت ،، لقد عجز عن الكلام لانه كان مقتنعا بعدم جدوى الكلام في هذه المرة ،، كان يمكن ان يقول له أي قول من أقوال المجاملة وجبر الخواطر فيخفف من أحزانه ثم يصارحه بأنه من حرفاء بنك الصبر ،

ولكن قدرته على المجاملات تعطلت منذ زمن بعيد ،، فحياته أصبحت صحراء جرداء لا شيء فيها الا بعض النباتات التي تنبت في القفار ولا تحتاج الى ماء !

ولذلك ظل الصمت يخيم عليهما ساعات طوال ، كان خلالها عبد الله كالذي فقد وعيه ،، بينما كان الصديق كمن فقد وعيه وينظر بعينين ذليلتين كأنهما عيون يتيم في مائـــــدة اللئام ! ،،

وعندما طالت الجلسة أعاد الصديق جهاز الراديو الى

الحقيبة وخرج بدون حتى أن يودع ،، لقد فهم ان صديقه لا
يختلف عنه الا بالصبر ،، وصبر أيوب بالذات !

المعدة تهاجم في يوم الحساب !

تصور عبد الله العريان وهو على فراش المرض وان شبح الموت انتصر عليه في لحظة من لحظات ضعفه ،، وما اكثرها ! واختطفه من الحياة ،، وانتقل به الى العالم الآخر حيث لا هموم ولا مطالب ،، ولا واجبات ،، ولا جـــوع ولا عراء ،،

وتصور انه في انتظار يوم الحساب تحول الى نخلة طويلة جدا ،، محملة بالتمر ،، وفوقها رجل يقطف التمر ويرمي به الى مجموعة من الصبيان يجلسون في ظل النخلة وهم يتخاطفون التمر ويتنافسون في أكله ويتضاحكون ويمرحون ،، وكلما اخذ الرجل كمية من التمر ورمى بها الى الصبيان نبت تمر اخر ،، وهكذا بحيث ان النخلة لا ينقص منها اي شيء ! ،، ومع ذلك فان الرجل لم يبد دهشة ولم يستغرب بل كان ماضيا في عمله وكأنه يمارس لعبة ممتعة ولا يتوقف ولو لحظة واحدة عن قطف الثمار ،، ولا ينـــظر اليه ،، ولا يأكل

منه كما يفعل الصبيان ! ،، ومضت فترة طويلة من الزمن كان الرجل فيها يؤدي مهمته على أحسن وجه ، وكان الصبيان يأكلون ويمرحون ،، لا هو تعب ! ،، أو سئم ! ،، ولا هم شبعوا ولا توقفوا عن اللعب أو الأكل ! ،، فإذا بيد هزت عبد الله العريان فأفاق ! ،، والتفت فوجد زوجته تقف الى جانبه ، ونظر الى نفسه نظرة شك فعرف انه مازال على قيد الحياة ،، وانه ليس نخلة طويلة باسقة محملة بالتمر وفوقها رجل قوي يوزع التمر على الصبيان ،،

قالت له زوجته · مالك تهذي وكأن بك حمى ؟

قال لها · خير ان شاء الله ،، لا أهذي ولكن ربما كنت في حلم !

قالت : امن اجل الأحلام لم تذهب الى العمل ؟،،

،،، القت سؤالها ولم تنتظر جوابا ! ،، وخرجت واغلقت الباب بعنف كما تفعل غالبا وتركته يسبح في ملكوت الله

أغمض عينيه فانتقل مرة أخرى الى العالم الآخر ! ،، لم ير شيئا ! ،، في الحقيقة كانت هناك الاف الأشياء ولكنه لا يعرف كيف سيصفها ،،، فهو يجهل اسماءها ،، ولم يرها في

الحياة ! ،،

فهم ،، ولم يدر كيف فهم انه في يوم الحساب ! ،، تقدم خطوات معدودة نحو شيء مجهول ،، ثمّ توقف ،، وبقـــي واقفا ،، ولم يعرف من امره بالتقدم وبالبقاء واقفا ،، نودي على اسمه فنظر الى اليمين ،، ثم الى اليسار ،، وظل ينظر الى الامام عله يتوصل الى معرفة مصدر الصوت ولكنه لم يتوصل ،،

وبعد ان نودي عليه ،، طارت في الهواء معدة ،، ثم نزلت امامه ،، وانتصبت وكأنها شخص يستعد لمعركة ،، وبعد برهة قالت له اتعرفني من أنا ايها السيد ؟

خاف ان يتكلم ،، ولكن المعدة صاحت في وجهه صيحة جعلته يفهم ان المطلوب منه ان يجيب عن سؤالها فقال وهو يتلعثم لا ،، لا أعرفك ،،

قالت   انا معدتك التي عشت معك منذ اللحظة التي نزلت فيها من بطن أمك ،، كنت معك طوال حياتك ،، ولم أفارقك الا عندما غادرت الحياة ،، ولقد ذقت معك طوال معاشرتي لك المر فقط ،، فلقد كنت جائعة دائما ،، ولم تعطني الا القليل

القليل ،، كنت تتعامل معي ببخل شديد ،، وصبرت ولم أشا ان أرد الفعل فاعذبك كما عذبتني وكنت أتألم عندما أشاهد زميلاتي يتلقين في اليوم الواحد أنواعا من المأكل والمرطبات والمشروبات ،، فهن دائما في المآدب ،، وفي الأفراح ،، بينما انا كنت معك في البؤس والشقاء ،، لا أشرب الا الماء ،، ولا أكل الا صنفا واحدا من الطعام حتى سئمته وكرهته ،، ولم أرك في يوم من الأيام تخرج الى مكان لهو تسعدني فيه وتسعد نفسك وتعطيني فيه لونا آخرا من الطعام والشراب ،، لم تشفق علي ولو مرة واحدة مع انك كنت دائما تدعي انك تعيش في حالة شفقة دائمة ! ،، لقد انهكتني وهدرت عمري واظلمت حياتي وحرمتني من طيبات الحياة ،،

اطلقت معدته التي تعرف عليها بعد ان نطقت بجزء من تاريخ حياته ،، اطلقت عباراتها النارية وتهجمت عليه كما شاءت ثم طارت في الفضاء وغابت عن بصره بحيث لم تترك له مجالا للدفاع عن نفسه ،،

كان ينوي ان يسترضيها ،، ويجبر خواطرها ،، ويقنعها بان ما كان في الحياة لم يكن بمشيئته ولكنها اختفت ويبدو انها كانت في غنى عن مسكناته الكلامية ،،

درس

عبد الله العريان سعيد اليوم بنصيحة قدمها له زميله في العمل ،، نصيحة الزميل بأن يأكل البريك في رمضان فهو زهيد الثمن ولذيذ الطعم وأكلة من أكلات القوم ولها تاريخ حافل وطويل وأكلها زيد وعمرو من أصحاب الشان ،، ولها ايضا شهرة واسعة خصوصا في الأوساط التي تتحكم في الشهرة ! ،،

وقال له زميله كي يقنعه بأنها زهيدة الثمن ان البريكة الواحدة لا تتطلب الا ورقة من الملصوقة وبيضة وشيئا قليلا من البطاطا والزيت ،، ولم ينس الزميل ان يذكر زميله بأنه يأكلها يوميا وبأنها ألذ الأكلات على الاطلاق ،، وادرك خميس فجلة رفيقه في العمل يتفاخر عليه فلقد كان يتحدث عن البريك وكأنه يتحدث في شؤون الذرة ،، أو في موضوع علمي شائك لا يعرفه الا هو دون سواه ،، وعندما لاحظ الزميل ان فجلة لم يحصل له شرف التعرف الى البريك هذا ،،، « زاد في الطنبور نغمة » ،، كما يقولون ! واصبح يتكلم من فوق فخيل اليه انه هو العلامة وعبد الله العريان هو تلميذ بليد

ساذج لا يستحق كل هذه المعرفة لولا الظروف المشؤمة التي جمعت بينهما في عمل واحد ! ».

وشكر عبد الله زميله عن كل المعلومات الاقتصادية والاجتماعية والتاريخية التي قدمها له حول البريك وعاد الى بيته لينقل الى زوجته ماتلقاه من معلومات !

ولكن زوجته فاجاته بأنها لا تعرف اعداد البريك ولم تر أمها وهي الطباخة الماهرة تعده ولو مرة واحدة ! ، فنصحها بان تذهب الى بعض الجيران وتطلب منهم ان يعلمونها كيفية الاعداد لأنه يحس برغبة قاتلة في أكل هذه الأكلة التي قال له عنها زميله بزهو انها كانت محلية فاصبحت عالمية ! » وان صغار القوم قلدوها على كبارهم فصارت أكلة شعبية يأكلها البعض طوال العام والبعض الاخر يقتصر على أكلها في رمضان خوفا من أســـار البيض ! ».

وذهبت زوجته للبيت الأول ! »، والثاني ! »، والثالث ! »، والرابع من بيوت الجيران ! »، وتجولت في كل بيـــوت الحي ! »، ولكنها لم تعثر على جارة تعلمها لان كل نساء الحي لم يسمعن بشيء اسمه البريك »، بل ان بعض النسوة سخرن منها لانها تريد ان تاكل (لقمة اكبر من فمها) ».

وتريــــــد (تبديل قشرتها) ،، فعادت زوجته ناقمة على الجهل ! ،، وعلى نساء الحي ،، وطلبت منه ان يأخذ من زميله طريقة الاعداد لانها تعلقت جدا بالبريك بعد ان عرفت ان نساء الحي يجهلن هذه الاكلة ،، فهي تريد ان تسبقهن في هـــــذا المجال ! ،، والحت عليه ان يطلب من زميله كل ما يمكن من ارشارات حول كيفية الاعداد والا فانهاسوف تذهب اليه بنفسها ! ،،

اصدقائي نسخة مني !

ضبطت قائمة في كل الاصدقاء والأحباب الذين اعرفهم وذهبت اليهم الواحد بعد الآخر ،، قررت ان أطلب منهم قرضا طويل الأمد استعين به على قضاء حوائج رمضان التي بدونها لا يمكن ان أعيش انا وزوجتي تحت سقف واحد رغم ان لي زوجة فاقدة لشهية الأكل ولكنها في رمضان تصبح أكولة ونهمة ،، شهيتها مفتوحة حتى أنني أتخيل في بعض الأحيان انها ستأكل الأواني وتأكلني انا اذا لزم الأمر ولو كانت عندها هذه الشهية طوال أيام العام لطلقتها منذ زمن بعيد لان راتبي كله لا يكفيها ،، ولكن ربنا لك الحمد ! ،،

ذهبت الى الاصدقاء والأحباب ومن كثرة ما طرقت من أبواب ودخلت من مقاهي بحثا عن أصدقائي وأحبابي الذين لم أرهم منذ أن تزوّجت لان الزواج أفسد مفهومي للصداقة ولكن الإفلاس هو الذي جعلني عندما أرى أحد الأصدقاء في الشارع افر خوفا من ان اضطر لدفع ثمن فنجان قهوة أو كاس شاي ،

من كثرة ما طرقت من أبواب ودخلت من مقاهي نسيت أن في الدنيا شيء اسمه الخجل ! ،، وأصبحت بعد الصديق الخامس أو السادس اطلب من أصدقائي القرض وكأنني أنا الذي سوف أقرضهم ! ،، وأصبحت ادخل في الموضوع راسا وبلا مقدمات لان المقدمات تطلبت مني مع أول الأصدقاء الذين اتصلت بهم بعض الجهد ،، وأنا رجل أرهقني الهم فلم يبق لي سوى الضعف والهوان بحيث اصبحت بلا خيال ، وبلا قدرة على استعمال كلمات المجاملة وعبارات اللف والدوران التي يستعملها الناس عادة عندما يطلبون شيئا مـن غيرهم ! ،

وبعد جولة طويلة اتصلت فيها بكل اصدقائـــــي ،، واحبابي ،، حتى أولئك الذين تعرفت عليهم في سنوات الطفولة ،، عدت الى البيت وجيوبي كما خرجت بها ،، لا شيء فيها سوى تلك القائمة الطويلة بأسماء وعناوين الأصدقاء ،، والقائمة الأخرى التي تقدمت فيها زوجتي بطلباتها الرمضانية وهي فعلا رمضانية على اعتبار ان كلمة رمضان معناها القيظ والحرارة الشديدة ،،

وبمجرد ان وصلت الى البيت عاد الي الخجل الذي نسيته

وأنا أطلب من الأصدقاء المعونة حتى لا يتهدم عشنا الهادئ من كل ضجيج ،، حتى ضجيج تلك الالات الكثيرة التي يستعملها بعض القوم في بيوتهم ،،

وأمام زوجتي تحولت الى كتلة من الخجل ! ،، وأصبحت عاجزا عن الكلام ،، بحثت عن لساني فوجدته مختبئا وكأنه فأر وجد نفسه فجأة أمام قطة سمينة تريد ان تنقض عليه لتغتاله ،،، حاولت ان أحرك لساني ولكنه رفض تماما ،، انه خائف ! ،، لا ،، إنه مشلول ! ،،

يا رب ساعدني على أن أعلن الحقيقة لزوجتي .

يا رب اعطني الجرأة حتى أقول لها ان كل أصدقائي وأحبابي نسخة مني ،، وانهم يعانون من نفس داء الافلاس وانهم معي في الضراء ،، وربما السراء التي لم تحدث لهم ولا لي الى الآن ! ،،

يا رب أنا مؤمن بك رغم إفلاسي وافلاس أصدقائي ولا أطلب منك سوى ان تساعدني على زوجتي !

بطاقــة

عنّي وعن هذا النهر

ليس من السهل ان تغتال الصحفي فيك فهو أقوى من كل محاولات الاغتيال لأنه ذكي ... ويملك حاسة سادسة تدلّه على المخاطر وتنذره في الوقت المناسب فهي جهازه للإنذار المبكر

وليس من السهل أيضا ان تطلب ولو برفق من هذا الصحفي الخروج منك ومن ذاتك وعقلك وان يتركك في حالك ولحالك ولو الى حين !

من الصعب ان تقول لهذا الصحفي « تفضل أخرج في إجازة وغادر هذا الجسد واذهب الى مكان بعيد حيث تريح وتستريح »

كل ذلك صعب ... ولكن يحدث ان تنجح المحاولة فالصحفي بداخلك يظل يرفض الخروج ولا يقبل الذهاب في إجازة الاّ عند اللحظة التي يقتنع فيها بأن الصحافة في بلادنا العربية تولد يوميا من رحم إمرأة تصرخ وتستغيث وتبكي وتريد ان تقول لمن حولها لا أحبّ هذا الوضع . ولا أحبّ هذا الذي سيولد ولست مسؤولة عن هذا المولود المشوّه

ليتني ما كنت

وليت الولادة ما كانت

وليت كل هذا ما كان

في تلك اللحظة وهي تتكرر عندما تبلغ المأساة حدّ الفجيعة يتخلى عنك الصحفي وينسحب منك رويدا رويدا ويغادرك بعيدا بعيدا الى حيث يتنفّس ويستنشق

بعض الهواء والأوكسجين وعندئذ فقط يمكنك أن تقول انا الآن .. أصبحت أبا .

وأما الآن سأكتب من حبر خاص بي وبقلم هو قلمي

في الفترات التي ابتعد فيها الصحفي عني بخرج مني وتركني وذهب يبحث عن هواء نقي وأوكسجين جديد كتبت هذه القصص القصيرة وبعضها أنشرها للأول مرة وبعضها الآخر نشرتها في « الصباح » و« الفـــــكر » و« الناس » وهي جريدة أسبوعية صدرت في السبعينات وقد نشرتها باسم أيكس

ولقد خيّل اليّ اني كتبت هذه القصص خفية عن الصحفي الساكن في ولكن يبدو ان ذلك غير صحيح فلقد حشر الصحفي نفسه في هذه القصص وتدخل فيها وساهم بتجربته وأسلوبه في كتابتها

لقد ظننت اني هربت من الصحفي واحتميت بالقصاص ولكن يبدو ان هو الذي انتصر في النهاية

وبعد ، فهذه قصص .. أو حكايات ليست قديمة جدا كتبها كاتب صحفي

صالح الحاجة

الفهـــرس

تم طبـع هذا الكتـاب على مطابـع
دار المعارف للطباعة والنشر
سوسة ـ الجمهورية التونسية

كتاب المعارف
يصدر عن دار المعارف

سلسلة كتب للجيب يشترك في تأليفها أشهر الكتّاب في الشرق والغرب.

السلسلة التي يستفيد منها الشباب والشيوخ على السواء بفضل ما تقدمه من موضوعات متنوعة.

تصدر عن دار المعارف للطباعة والنشر بسوسة/ تونس في طباعة أنيقة تهدف إلى رفع مستوى الكتاب العربي شكلا ومضمونا.

الكتاب القادم
الأم
مكسيم غوركي

تم طبع خمسة آلاف نسخة من هذا الكتاب.
تدمك : 0 ـ 130 ـ 16 ـ 9973 ـ ISBN
الثمن : 2.500 د. ت. أو ما يعادلها بالعملات الأخرى.